الأدب هو الصدق

الدكتورة نجاح العطار

من اسخيلوس الى طرفة ، الى المتنبي ، الى غوركي ، الى ناظم حكمت ، يظل الانسان ومضة برق على صفحة بحر الحياة . يحترق ، يشقى ، يتعذب ، لكنه ، في النهاية يتمجد ، لانه اعطى الوجود ان يكون وجودا ، اراد له ان يتحقق بالالم ، لانه بذلك ، يتعالى على الالم نفسه ، يصبح الوجود دربا الى القمة ، على سدرة منتهاها ترتفع للحق راية ، وللعدل ميزان .

(*) كلمة الدكتورة في الملتقى الادبي الذي اقامته مجلة الى الامام .

ان بروميثيوس الذي قدم كبده للنسر ، قد أتاح لنا ، في مجاز الاسطورة ، ان نصون اكبادنا من كاسر الطير ووحش الفلاة . عانى ، نزف ، تفصد عرقا ، رأى الهولة بين ارتفاع الصخرة وانحطاطها ، لكنه في المآل ، أعطى سر النار للانسان ، وبذلك أسهم في تقدم البشرية . ومن هنا ، هذه الاسطورة الاغريقية ، عاشت خلودها ، عاشت القرون ، الاجيال ، وما تزال ماسة ، تلتمع امام العيون المدماة في نضج الليل ، لانه مكتوب ، منذ فجر التاريخ الى يومنا الراهن ، انه بالموت يوطأ الموت ، ولا توسط ، في حد الحد ، بين أن نعيش وقوفاً ، أو نركع العمر كله على الركبتين .

ان الادب ، في غاية غايته ، يياسر الى الصدق ، ومن الصدق ، مع النفس ومع العصر ، ان نرصد مرقى الصخرة ، ومولد الانسان ، والحارق نفسه في سبيل انارة الطريق للآخرين ، فبمثل هؤلاء فقط ، تتجذر فكرة البطولة القائمة على التضحية بالنفس في سبيل تقدم البشرية ، وحرية الوطن ، وخلاص الفرد ، ومن الصدام ، بين هؤلاء وبين اقدارهم ، ينبثق الصراع الذي لا حياة دونه ، بين الانسان وقيده ، وبين المضطهد والطغيان النازل به .

هكذا افهم الفكر ادبا يكتب عصره ، يكتب انسان هذا العصر ، قضيته فيه ، ويقف ، لا في المتفرجين على المعركة ، بل بين خائضيها ، ولا حيدة ، فقبلا كانت الفلسفة مكرسة لتفسير العالم ، ثم صارت لتغييره ، وقبلها كان الادب حلية ، ثم صار مدية ، وكان بسمة جارية على سرير ، ومنادمة جليس على شراب ، ثم صار هتفة حق ، وصرخة مظلوم ، ونداء ثورة .

لكن الادب ، وهو يكتب نفسـه ، تاريخه ، عصره ، انسانه ، قد ظل بحاجة الى وسائل هذه الكتابة ، وسائل ممارسته لذاته ، ومن هنا قال لينين ، عبقري قرننا ، ان الصحيفة او المجلة ، في شبكة علاقاتها ، بين المؤدين والمتلقين ، هي الجامع ، واللسان ، والرابط ، والموحد ، والمبلغ عـن القادة الى الجماهير وبالعكس .

هكذا افهم العلاقة الجدلية بين مجلة الى الامام ، وبين الملتقى الادبي الذي يقام بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة لانطلاقتها . افهمه امتزاجا بين السياسي والادب ، في معركة الهدف ، على أن يبقى ، لكل منهما ، خطابه الخاص ، وافهمه اخذا وعطاء ، بين محارب على جبهة السياسة ، ومحارب علـى جبهة الكلمة ، وافهمه ، ايضا ، تفاعلا بينهما ، لانه بالفكر تتشكل الذهنية النضالية ، وبالادب تتجسد ، وبالسياسة توضع على أرض الكفاح ، ثم تعود الدورة ، من أرض الكفاح الى الادب والفكر ثانية ، وبهذا يغدو التلازم ، بين السياسة والادب ، لحمة معرفة وتعبير وتنفيذ ، وصياغة لوجدانات المفكرين والادباء والسياسيين والمقاتلين على السواء .

وقد أحسنت الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ، باقامة هذا الملتقى ، وزادت احسانا بأن خصصته للادب ، مع ان المجلة سياسية ادبية ، فالادب ، بما هو فكر ، يعبر عن ذات المناضل ، والنضال ، أولا واخيرا ، نتاج دماغ وانامـل ، ومفاداة تبلغ أن تجعل الدم مهرا للحرية ، وقلادة للتحرير ، ومشعلا للتقدم ، ومن خلال الادب يمكن أن يقال كل شيء ، لانه جامع لكلّ شيء ، وكل ما عداه محوره اختصاصه ، اما

هو فشامل ، يمكن في ضوئه ان نرى الصحائف ، في مدونات الوقائع ، وتوجهات المعركة ، وتطلعات الجماهير ، وابعاد المسيرة ، تكتيكا واستراتيجية .

وفي زمن الردة هذا ، حيث القيادة ، في منظمة التحرير ، تعطي نفسها للشيطان ، وتمهر بالطفراء الحميدية ، بيان عمان بين الملك و « المارشال » ، وتجعل لليمين الفلسطيني « بارجة » في المرفا الامريكي ، يكون قيام جبهة الانقاذ الفلسطينية ذا معنى خاص ، بعضه ان الردة لا يمكن ان تستمر ، وان اتفاق عمان لا يمكن أن يمر ، والانحراف البغيض سيقوّم ، عبر المعركة ، بحد الرصاصة ، وبعضه الاخر ان « استقلالية » القرار الفلسطيني قد كانت ، في الوجه الاخر ، المقصود ، المفضوح ، استقلالا عن التيار ، واستقالة منه ، وارتماء في احضان ملك عمان ، ومبارك القاهرة ، وصدام بغداد ، هذا الثالوث الحامل لكامب جديد، يصفي القضية العربية ويدفنها في رمال الاستسلام .

انني لا اعرف كيف يرسم الادب بالكلمات ، كل هذا الشموخ ، لكنني قرات قصيدة ناظم حكمت عن الوجه الماجد، والوجه السافل للعصر ، واحسب ان الوجه الماجد الى استدارة قمر ، يغمر الان ، بشلال من الضياء ، دنيانا العربية ، منطلقا من الجنوب اللبناني ، الجنوب الذي قال الرئيس حافظ الاسد ان علينا ان نتعلم منه ، ونسلك طريقه في التحرير ، والذي في الاستجابة لنداء الارض ، يصنع المعجزة ، ويرتفع بها أعلى فاعلى فاعلى .

سلام على الجنوب اللبناني ، جبلا وسهلا وبحرا ، وسلام عليه رجلا وامراة وفتى ، وسلام على الفادين لاجل ترابه ،

الناذرين نفوسهم للموت ، والمقتحمين الردى عن تصميم بلغ حد الاعلان ، قبل المهمة عن المهمة . ثم لا احجام ولا خوف ولا تردد ، كانما الميته الشماء ، في اندفاعة الجسد المنذور ، حياة تعلو بالحياة الى كرامة الشهادة ، في شكل جديد ، مجيد ، باهر ، لم نالفه ، في شرقنا هـذا ، قبل الجنوب ، وقبـل وجدي الصايغ وسناء محيدلي .

يحق لنا اذن ، أن نفخر ، لا بنضالنا وحده ، طوال اربعين عاما ، ضد عتاة الامبريالية والنازية ، ضد امريكا واسرائيل، ضد المتخاذلين والرجعية العربية ، بل ان نفخر بكفاح الشعب الفلسطيني ، الذي كان وجها مجيدا لمصـرنا النضالي ، وسيبقى مجيدا ، مشرقا ، مشـرفا ، في الارض المحتلة ، وحيثما وجد فلسطيني يؤمن أن الكفاح المسلح ، ولا شيء سواه ، طريق النصر ، كما نفخر ايضا بأن لنا ، في الجولان ، مأثرة في كيف يناجز العدو ، وتكون الحرب مفردة وطويلـة بين سورية واسرائيل ، ثم كيف يقف أبناء الارض المحتلـة والجولان ، في زحمة التراخي العربي من حولهم ، صامديـن رافضين ، رافعين لواء الانتماء الى الوطن على ذروة رمـح في وجه الاحتلال الشرس ، ثم ان نفخر ، ولا أزهى ، بأننـا فتحنا في جنوبنا اللبناني ، فتحا مبينا ، ايقظ النوم بمـا اجترح من جديد للكفاح ضد الاحتلال ، تحت أنف الاحتلال نفسه ، وضد حديده الدرعي ،ببسالة الانسان الذي هـو درع الحرب الاول ، ودرع الكفاح الاول ، ودرع النصر حين النصر لا يؤخذ الا غلابا ، وبذلك كان الجنوب علامة فارقة ، وخطا بيانيا صاعدا ، ووجها مجيدا لعصر الشعوب ، مقابل الوجه السافل الـذي يمثله خونـة الشعب الفلسطيني ،

ويبصمونه حلفا وبيانا واعلانا للزمن التفاوضي مع امريكا واسرائيل ، تحت عباءة الملك وعقدة الياقة المنشاة لحاكم مصر الذي امتد به ، أو تطاول حكم السادات . ثم جاءنا النبأ ، خلل قفل ومفتاح ، عن المفاجاة الكبرى ، المفاجاة التي ندر ان سجل مثلها تاريخ المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الاجنبي ، وهي الهجمة الانتحارية التي لا راد لها ، ولا احد قادر على ايقافها ، منذ أن تنطلق الى ان تنفجر ، ما دام العزم قد انضفر على شراء التحرر بالموت .

ويعجب المرء ، قل يتعالى ، يتسامى ، وتصير له قامة مارد،اذ هو يتحقق في مواطنه ، حين يكون هذا المواطن شابا كوجدي الصايغ ، أو عروسا كسناء محيدلي ، له ، أو لها ، قدرة التقاط الصورة ، وتسجيل الكلمة ، وكتابة الرسائل الى الامهات قبل الموت ، فيها عبارة واحدة « انني أرد الامانة الى امتي » ، ثم يمضي ، وتمضي ، قذيفة على عجلات سيارة ، تقتحم آليات العدو ، وحاملات جنوده ، فتنفجر بالجسد الفادي ، وبالاجساد المغيرة ، وتقتل في سبيل الا يكون قتل ، وتعنف كي لا يكون عنف ، وتنتقم من مجازر الاسرائيليين في ميتة لا تمهل ، ولا تهمل ، بل تستعجل الثأر ، وتتقاضاه الحساب على نحو خارق في الجسارة والبطولة .

هكذا الفعل الثوري ، يمارس ، يتحقق ، يكبر ، يشكل ممارسته الثورية ، ويعطي للثورة ان تكون قمة الزمان ، وفاصلا بين تاريخين ، قديم وجديد ، وشارة من نار لم يعرفها تاريخ الثورات من قبل ، كما يعطي للفعل الثوري ، في جنوب لبنان ، ان يكون قمة الزمان العربي ، في عناق مع

الفكر منه انقدحت الشرارة في كل الثورات ، فاحرقت السهول بالطغاة ، ودكت معاقلهم ، وجعلت قشورهم بددا .

لقد كان الادباء يسألون ، ويتساءلون ، بعد حزيران ، ماذا نكتب ، وبأي أداة ؟ ان الاعوام النائحة تلـك ، ابطلت حجتها حرب تشرين ، لكنهم ما اقتنعوا ، وجاء تنفيذ حكم الاعدام بالسادات ، فما آمنوا ، وتلته بطولات الفلسطينيين واللبنانيين في صمود بيروت ، وقتال القوات الســورية في جبال لبنان ، وبطولات المواطنين في الجبل ، فظلوا ــ الادباء العرب ــ يتحسسـونمكان المسامير ، فعل توماالشكاك ، لكن الجنوب اللبناني الملهم ، قد آن له أن يلهمهم القصائد والقصص والروايات والمسرحيات ، فالبطل الشعبي الذي يبحثون عنه، يصرخ فيهم ، بلسان وجدي الصايغ وسناء محيدلي : انـنـي هنا ! ويصرخ بهم الشعب من وراء الشهيدين وآلاف الشهداء والمعتقلين والمقاومين : انني هنـا ، تعالوا الي ، كما ذهب الكتاب في الدنيا ، الى المقاومة ، في بعض اطرافها ، لا كتابا فقط ، بل مقاومين ايضا ، وفي ارض المعركة حققوا ذواتهم ، وكلماتهم ، واعطونا ادبا حيا وصادقا .

من أجل ذلك ابارك هذا الملتقى الادبي ، فهو تاكيد جديد على اللحمة بين الاديب والسياسي ، وهو دعوة للادباء الى الانتماء للسياسة ، فيها ، ومع احزابها ، وفي معاركها ، تكون المعاناة التي يتعلم بها الاديب ابجدية الادب ، وفي سوقها ، قولة عمر فاخوري ، يصبح الاديب من لحم ودم ، ويطرح بعيدا ، الاديب من حبر وورق .

وفي منزل القرآن الكريم آية هي : « وشهد شاهد مـن اهلها » دعوا اذن ، شهاداتنا . خذوا شهادات الاعداء ، لا

البعيدين ، المتناثرين في أربع رياح الارض ، بل في اسرائيل نفسها ، حيث الاعترافات تتوالى ببطولات الشعب اللبناني ، وبالضربات الموجعات التي ينزلها المقاومون الوطنيون اللبنانيون بالاحتلال ، جنديا وآلية وحوامة تحسب نفسها في منأى عما يدب على الارض دبيب النمل ، ويهدر كالبركان ، وينفجر كالصاعقة ، ليلف بالاعصار ويشيل أشلاء نتنة دنست أرض الجنوب الطهور .

ايها الاخوة والاخوات :

في الزمن الصعب ، تغدو المساءلة عن حقيقة المقولات العلمية مبررة . وفي الزمن البطولي، تكف هذه المساءلة ،لان البطولة تصير لها جوابا . ان عصر الشعوب هذا ، قد سمح لنا في بعض فتراته أن نتساءل ، هل هذا حقا عصر الشعوب ؟ او هل هذا عصر الشعب العربي على الاقل ؟ وكانت الادلة ، كحكاية الصين والمخرز ، تعاد وتستعاد ، ليقال لنا انظروا : ماذا صنع الشعب العربي هنا او هناك ! وفي الجواب لن نبقى ، كما يحسبون ، في العاطلين .. نحن أيضا نقول لهم : انظروا ماذا فعل الشعب العربي بالسادات والنميري واضرابهما من الخونة ! لقد كان انقلاب السودان ، قطاف ثمرة للانتفاضة الشعبية ، ومهما يكن مستقبل هذا الانقلاب ، فان التاريخ سيذكر انه كان نتاج انتفاضة شعبية ، وهذه الانتفاضة ، اذا لم تحقق ذاتها الان ، ونرجو ان تحقق ، فهي انتفاضة متحققة في المستقبل بغير شك ، ومتحققة بكل اهدافها ، على نحو يتوج نضال هـذا الشعب البطل ، صاحب التقاليد الكفاحية العريقة في تاريخها .

وباعتبارنا اهل الدار ، فقد يكون علينا الا نفاخر بمن فيها ، والا لكان علينا ، ومن حقنا ، وواجبنا ايضا ، ان

نتحدث طويلا عن كفاح الشعب العربي الفلسطيني وبطولاته ، طوال عقود في الارض المحتلة ، وفي الضفة الغربية وقطاع غزة ، حيث عجز الرمح الاسرائيلي المسموم ان يشك قلب المناضل الفلسطيني ويخترقه ، وكذلك عن صمود الشعب العربي السوري بقيادة زعيم عربي ازهر الكفاح في كفه المرفوعة ضد تيار الهزيمة ، وبسالة الشعب اللبناني الذي اجترح اعجوبته وسط ذهول العرب جميعا ، وان نستأذن في التذكير بما تمور به القشرة الارضية في الوطن العربي من تململ وتمرد وجهر بالحق ، وتناد الى النضال ، ووثوب على الاذى .

ان شعبنا العربي ، قد اعطى برهانه طوال هذا القرن ، واذا لم يحسم الامر ، فان امامه زمنا طويلا بعد ، وما القرن، في حساب الزمن ؟ ((انه وقت لا يرى حتى بالمجهر)) .

نظار اذن ! والى العمل ، كل في ميدانه ، وسرايانا ، قولة بدوي الجبل ، ستطلع على الدنيا ، وليس لدي شك في طلوعها ، طلوعا ابلج ، ما دمنا ، مقابل جبهة الاستسلام ، نقيم جبهة عريضة عرض الافق للمقاومة ، وتزداد جبهتنا ، لانها الى نمو وصعود ، بينما جبهة الخنوع الى ضمور وانحطاط .

التهنئة الصادقة للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ ولمجلتها المحتفى بها الى الامام ، وتحية الى الاخوة الادباء المشاركين في هذا الملتقى ، وافضل التمنيات بالتوفيق والنجاح ، وشكرا .

* * *

المثقف العربي
بين
اشكالية النهضة
والرؤية الاديولوجية

حافظ الجمالي

الينابيع الفلسفية
لنظرية الابداع المهجرية

د. أسعد دوراكوفيتش

ميخائيل نعيمة
شاعراً
بين المنهج النقدي
والتطبيق الابداعي

ممدوح السكاف

المثقف العربي بين اشكالية النهضة والرؤية الايديولوجية

حافظ الجمالي

في هذه الايام ، واكثر من اي وقت مضى ، يقف المثقف العربي وجها لوجه امام اشكاليتين ضخمتين (بين جملة اشكاليات اخرى)، اولاهما تتعلق بالنهضة، من حيث هي نهضة ، والثانية تتعلق بالتلازم المتواصل بين الايديولوجيا والنهضة ، كأن احداهما لا تقوم من دون الاخرى ، او على الاصح كان الثانية لا تقوم من دون الاولى ، حتى لكان طبيعة الايديولوجيا تساعد او تعرقل النهضة . واريد ان ابحث في هذين الامرين بحثا سريعا بعض الشيء ، ولو بدات بالثاني منهما قبل الاول ، بعد تمهيد يتناول الزاوية التاريخية من هذا الموضوع .

وحقا فان النهضة ، من حيث هي كذلك ، لـم تطرح نفسها علـى الفكر العربي الا مع غزو مصر من قبلْ نابليون عام ١٧٩٨ ــ ١٧٩٩ ، وربمــا في مصر وحدها ، دون غيرها ، لانها كانت مكان الغــزو وعدفه وضحيته . اما في البلاد العربية الاخرى ، فقلما كان هناك من يظن انه قد يكون لحياته صورة اخرى غير الصورة المتخلفة التي الفها ، وذلك على الرغم من ان هزائم الدولة العُثمانية ، منذ اوائل القرن الثامن عشر ، وقبله ايضا ، كان ينبغي أن تحرك العقول للبحث عن اسبابها ، وبالتالي عن وجود فوارق كبيرة في المستوى الحضـاري ، وبالتالي مستوى القوة ، لا بين العثمانيين ، وغربي أوروبا فحسب ، بل بين العثمانيين والدولة الروسية التي كانت توضع في زمرة الدول المتخلفة بالقياس الـى دول غربي أوروبا . وفعلا فقد تحركت العقول بعض الشيء في الدوائر العليا من الســلطنة العثمانية . ويروي البرت حوراني في كتابه عن «الفكر العربي في عصر النهضة »ان هذه الدوائر اصبحت تشعر شعورا واضحا بتخلف الدولة ، منذ عام ١٧٢٠ ، وان السلطان طلب من مرتد فرنسي اسمه دي بونفالْ ، ان يفتح مدرسة للهندسة العسكرية ، بدءاً من ثلاثينات القرن الثامن عشر ، كما حاول انشاء جيش على اسس اوروبية ، ثم تتابعت التنظيمات الخيرية بعد ذلك ، سيما وراء النهضة المنشودة. ومن المؤسف ان هذه التنظيمات امتدت على مايزيد قرنا ونصف القرن ، دون أن تبلغ غايتها مما يعني ان « التنهيض » غير النهضة ، وان ال « فوق » لا تغني عن ديناميات ال « تحت » ، وان اساس النهضة وركيزتها ، واصلها ، انما تقوم في الشعب بالدرجة الاولى ، لا في القيادة .

أما في البلاد العربية ، فان مصر محمد علي هي التي شعرت بضرورة النهضة وهي التي قامت بجهود ضخمة من اجلها . وعلى الرغم من ان الباحثين الماركسيين النزوع الآن ، يعللون هــذه الخيبــة بعجز الدولة الخديوية عــن تحقيق ادارة اقتصادية سليمة ، على عكس اليابان ذات

الستين مليونا يومئذ ، فاني اعتقد ان الاخفاق كان الى حد كبير نتيجة لمقاومة الغرب ، لاهداف محمد علي ، مما هو واضح ، على ما اظن ، حتى الآن .

وكانت سورية الطبيعية هي البلاد الثانية التي شعرت بضرورة النهضة ، وقيام الحاجة اليها . ونحن نعرف من كتاب الحوراني نفسه، انه كان هنالك سلسلة من المفكرين ذي الاصل الموراني ، بدءا من الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ – ١٨٧١) وفارس الشدياق (١٨٠٤–١٨٨٧) وبطرس البستاني (١٨١٩ – ١٨٨٣) ، هي التي قادت المشاعر النهضوية، واعتمدت فيها على الثقافة العربية ،مطعمة بالثقافة الاجنبية .وقد اشار الى ذلك باحث سوري هو الدكتور اديب نصور في كتاب اصدرته الجامعة الامريكية عام ١٩٦٦ ، بمناسبة الذكرى المئوية لتأسيسها ، بعنوان : الفكر العربي في مئة عام .

ولاريب عندنا ان كل الاطراف التي انتبهت لضرورة النهضة ، كانت تفكر بنهضة على الطريقة الغربية ، دون التخلي عن التراث والثقافة العربيين . او الاسلاميين (لدى الاتراك) . فقد كان البستاني مثلا يشارك دعاة الاصلاح العثماني نظرتهم . فاذا كان على سورية ان تتمدن، فعلى حكامها ان يصدروا قوانين عادلة ، متفقة مع روح العصر ، وتنتبه الى الموضوع لا الى الاشخاص ، وتقوم على الفصل بين حقلي الدين والدنيا ، ثم عليهم ان يقيموا التربية على اساس اللغة العربية ، اذ يجب الا تصبح سورية بابل لغات ، كما هي بابل اديان . واما غرض هذه التربية ، فهو فهم العلوم الحديثة ، والتشرب بطرق العقل والعمل الكامنة وراءها . وفي هذا السبيل بدأ نشاط البستاني يتجه الى اصدار موسوعته الكبرى (بلغت ١١ جزءا) التي لم تكتمل ، وكانت تشتمل على ابحاث في العلوم والطب والاشغال الهندسية ، والافكار الليبرالية السائدة في اوروبا وامريكا .

غير ان سبل النهضة ظلت غائمة الى حد كبير ، او مختلطة الحدود على الاقل ، متعددة السبل . ويطلعنا عبد الله العروي في كتابه عن

الايديولوجيا العربية ، أن هذه السبل كانت ثلاثة : واحد منها يمثل الاصلاح الديني على طريقة الشيخ محمد عبده ، والثاني يمثل الاصلاح السياسي ، والاخذ بالمفاهيم الديمقراطية والليبرالية ، على طريقة لطفي السيد . والثالث يمثل التقنية والصناعة على طريقة سلامة موسى(١) ولاشك ان كلا من هذه السبل كانت تضمر مفهوما خاصا للنهضة ، هو في ذاته تغيير ايديولوجي ، أو احلال ايديولوجيا جديدة غير الايديولوجيا السائدة .

ومع ان هذه الصور الثلاث تمنى بابراز عوامل النهضة او السبل اليها فانها ، مع ذلك ، لا تبرز المعنى الواضح لما تريده كنهضة ، واعتقد ان المفكر السوري عبد الرحمن الكواكبي في كتابيه « طبائع الاستبداد » وأم القرى ، هو الذي كان أوضح من جميع معاصريه ، فيما يدعو اليه من نهضة اسلامية بزعامة العرب ، تحيي التراث الديني في روحه الاساسية (أي في عقلانيته البسيطة التي يتحدث عنها امثال الدكتور عابد الجابري في كتابه : تكون العقل العربي) ، وتعلم علوم الغرب ، وتقنياته ، ويقوم على حرية الفكر وعدالة العالم وابعده عن الاستبداد. مما نعتبره الآن من ايحاءات الليبرالية الغربية ، على كونه من روح الاسلام ولبه ، بلا منازع ، ولو ان التأويل الاخرى غير الليبرالية ، كانت ممكنة أيضا ، منذ عهد معاوية ، ولكنها لا من غير قسر الاشياء على غير طبيعتها .

وهكذا نلاحظ ان المثقف العربي يجد امامه عدة مفاهيم أو صور او اساليب النهضة ، واحدة دينية ، وأخرى سياسية ديمقراطية ، وثالثة تكنولوجية ، ورابعة من النوع الذي يحل ايديولوجية جديدة (كالماركسية ، أو الاشتراكية العربية ... الخ) محل الايديولوجية السائدة ، وهذا بغض النظر عمن يريد للنهضة العربية ان تكون نسخة طبق الاصل عن الحضارة الغربية فيما لها من نزعات بورجوازية وليبرالية ، كاطار سياسي وعلم وتقنية ، كأساس انتاجي . ولا اقول : اقتصاديا .

والمشكلة الاخرى في هذه الاشكالية (اي في كثرة السبل الى النهضة وتنوعها) هي انه ما من ايديولوجية من هذه الايديولوجيات ، الا وقد جربت او ماتزال تجرب في الوطن العربي ، ويلاحظ الكثيرون ، بل الكل قبل العروي وبعده ، ان بعض العرب يجربون النهضة على اساس ديني (كالوهابية مثلا) ، وبعضهم يجربون هذه النهضة على أساس مناقض تماما (كالاخذ بالماركسية) ، أو على اساس مختلط يجمع بين الاسلام والاشتراكية (على طريقة بومدين أو بن بيلا مثلا) ، وجربت بلاد اخرى مفاهيم الديمقراطية (كما هي الحال في المغرب او في تونس) ، الا ان تجاربهم هذه القائمةسياسيا على تعدد الاحزاب او الحزب الواحد ، قد اخفقت او لم تلاق الكثير من النجاح . اما انها حققت اكثر من اخفاق ، وشيئا غير قليل من النجاحات السلبية ، فهذا ما لا يظن احد انه موضع شك .

ونقول ان هذه التجارب اخفقت مجتمعة او متفرقة . اخفقت عندما استغنت عن التراث ، واخفقت بالقوة نفسها عندما استغنت عنه . واخفقت عندما صنعت، واخفقت كذلك عندما لم تصنع . واخفقت عندما اخذت بايديولوجية قومية اشتراكية ، كما اخفقت عندما اخذت بايديولوجية اممية اشتراكية. واخفقت عندما اخذت بالنظام الديمقراطي، كما اخفقت عندما استغنت عنه . ومادامت تصنف نفسها في العالم الثالث ، لا الثاني ، وطبعا لا الاول ، فلا شك انها تعترف بهذاالاخفاق . والخلاصة انها لم تحقق النجاح المطلوب لا بالدين ، ولا ضد الدين ، لا مع الديمقراطية ، ولا ضد الديمقراطية لا مع التصنيع ، ولا بدون التصنيع ، لا مع البورجوازية ، ولا ضد البورجوازية ، ولا مع الحرية ، ولا بدون الحرية . أفلا يعني ان الاشكالية ليست في صحة الايديولوجيا، أو عدم صحتها (اذ ما من ايديولوجيا هي صحيحة علميا ، ولا يمكن أن تكون كذلك ، لان كل ايديولوجيا هي مجموعة اختيارات ، لا مجموعة اختبارات) بل في صورة التطبيق التي اختيرت لها : اذ أن النهضة لا

تكون بقرار من « فوق » ، بل بدينامية من « تحت » . وعلى ما أعلم فانه قل في الوطن العربي ان طبقت ايديولوجية مـا تطبيقا سليما ، او طبقت التطبيق الذي تطبقه انسـانيا . ونذكر هنـا ان الاسلام نجح في الماضي كايديولوجيا . لا لانه طبق بحذافيره ، ولكن لانه طبق بقدر محدود غلبت فيه السلامة على عدم السلامة .

وهكذا تنقلب الاشكالية في نظر المثقف من الايديولوجيا الى تطبيقها. ومن وضعها نظريا في قوالب جاهزة ــ وقلما كانت كذلك ــ الى كيفيـة الايمان بها ، والعمل من اجلها . وعندما يقال : ان اكثر الايديولوجيات التي اخذ بها العرب ، لم تجرب تجربة كافية ، وانه مازال امامها متسع من الوقت لاثبات سلامتها ، من حيث اننا سنعيش قرونا كثيرة اخرى، فان جوابنا ان هذا صحيح الـى حد ما . ولكنه ليس صحيحا كليـا . فالمريض لا يبرأ لمجرد تناول الجرعات الاولى من الدواء ، ولكنه يتحسن مع هذه الجرعات بعض الشيء . امـا اذا ازداد المرض ، فمـن الصعب القول : ان الدواء سيشفي بعد حين .

وحتى الآن لم نعالج الا علاقة الايديولوجيا بالنهضة . حيث وجدنا ان الايديولوجيات المختلفة نظريا . قد تساوت من الوجهة العملية ، او في التطبيق ، بمعنى انها لم تكن في حالة ما ، أعظم مردودا منها في الحالة الاخرى . ولكننا لم نعالج قضية النهضة ، او اشكالية النهضة بالذات. ذلك ان هذه النهضة هي ، في ذاتها ، اشكالية قائمة بذاتها . ترى ماذا نعني عندما نقول : اننا نريد النهضة ؟

ان من يعرف طبيعة البلاد العربية من ادناها الى اقصاها . حيث تقل الانهار الكبيرة ، ويتضاءل المطر ، وتزداد الارض سمات صحراوية ، يعرف بالتأكيد ان بلادنا ، على سوء استثمارها حتى اليوم ، لن يكون لها ذلك الوجه الاخضر ، ولا تلك السماء الغائمة ، الماطرة ، ولاتنبت تلك المحاصيل الغنية واقصى الجهد في رأي الباحثين العرب ان نضاعف مساحة الارض المزروعة ، وان نرقى بالزراعة ، اي أن نجعل المساحة حول ال ٩٠ مليون

هكتار اولا ، وأن نجعل انتاجية الهكتار تزداد من حدود الـ ٧٠٠ كغ الى اعلى حد ممكن وهو الحد الذي بلغته اسرائيل بما لديها من قدرات تقنية ومساعدات خارجية ، اي ٤٠٠٠ كغ من الحبوب المختلفة . ومادمنا اليوم نعتمد في استهلاكنا على الواردات الاجنبية . ونأتي بنصف مانحتاج أي حوالي الـ ٢٠ مليون طن ، فلا ريب ان القفز بانتاجية أرضنا ومساحتها الحية على مثال ما فعله الاخرون ، سيرمم العجز القائم اليوم، ويكفي حاجة الزيادات السكانية ، المتوقعة حتى آخر هذا القرن (أي ماسيكون العرب معه ٣٠٠ مليون نسمة ، او اقل بعشرين مليونا او ثلاثين على الاكثر) ، بدلا من الـ ١٧٠ مليونا التي نحن فيها الآن) .

وايضاحا لفقر ارضنا ، ومقدار الجهد الذي يجب ان يبذل لاستثمار خيراتها الكامنة ، نذكر بان الارض الفرنسية ، وهي ١ من ٢٧ من الارض العربية انتجت ٣١ مليون طن من القمح وحده ، مقابل العشرين مليونا التي ننتجها نحن في هذه الايام .

وعلى ذلك فان النهضة تعني ، او يجب ان تعني الارتقاء بانتاجية ارضنا الى المستوى المتقدم ، لا طمعا بتصدير محاصيلها الى الآخرين ، ولكن طلبا للكفاية الذاتية ، او دفعا للعجز الغذائي المتزايد .

غير أن القفز بانتاجية الارض لا يمكن ان يتم الا اذا قفز انساننا قفزة نوعية في مستوى علمه وتقنياته وقيمته الذاتية كانسان هو غاية لذاته ، وليس وسيلة لشيء آخر فوقه . ولتكن الارض ما شئنا لها ان تكون ، فستظل دوما صورة للانسان الذي يسكنها ويجعلها على صورته ، مهما تكن امكاناتها كبيرة . ولئن طمحنا الى النهضة منذ قرنين تقريبا ، دون أن نحققها ، فلا ريب ان من اسباب ذلك هبوط مستوانا الانساني ، لا بالعلم وحده ، بل بالقيمة . ان انساننا مايزال هو العنصر المريب والمشبوه والمثير للحذر باستمرار ، ولهذا نصر على « اخافته » اكبر الخوف ، وننزل به الى درك من الخضوع ، قلما يعرف الاكثر منه انسان آخر ،

فضلا عن ضعف عنايتنا بنوعية التربية ، لا بكميتها ، مما يضعف مستوى كفاءاتنا ، وينحدر بها كثيرا ، ويجعلنا باستمرار مستوردين للعلم ، كما نحن مستوردون للقمح .

واذا قلنا بضرورة الارتقاء بقيمة الانسان ، فان هذا لا يعني مطلقا اننا بقينا على ما كان لنا من القيم التقليدية ، ولم نغير فيها الا قيمة الانسان وحده . بل لابد من « سلم قيم جديدة » غير القيم التقليدية . تحتل فيها قيمة الانسان مركز القمة ، وتتناغم معها القيم الاخرى . وعبثا نحاول أن نمكن لانساننا من هذا الصعود الاخلاقي ، من دون ان نصعد بقيمنا الاخرى ،مما لا يبدو انه سيتم في مدى قريب .

وهكذا فان معنى النهضة لن يتجاوز بحال ، او على الاصح ، لابد ان يشتمل على « صعود انساني » اولا ، وارتقاء بانتاجية الارض لكي يتوازى هذان الصعودان ، وتعديل سلم القيم العامة ، لكي تستوي لنا منها منظومة قيم جديدة تكون معها خلقا سويا . وبمعنى آخر ، لئن حقق انسان الغرب صعودا انسانيا ضمنت فيه حقوقه ، وكرامته ، وسلامته الذاتية من الاذى ، وقدرة اعظم فاعظم على اخضاع الطبيعة لحاجاته ، فان شيئا ما ، خطيرا جدا ، كان يشوه صورة هذا الصعود . ويجعله متحيزا ، وحيد الجانب ، تنقصه الشمولية . ونحن نعيب على انسان الغرب دوما انانيته الضيقة ،وتقوقعه على ذاته ،وضعف التواصل بينه وبين الآخرين ، وشعوره مع ذلك بان منظومة قيمه خاصة بحدود بلده ، لاتتجاوزها الى غيره ، مما انتج استغلال الانسان للانسان ، وانقسام الانسانية الى قسمين ، احدهما يظل في المركز ، سيدا ، آمرا ، متحكما ، والثاني يبقى في الهوامش ، عبدا ، خاضعا ، متحكما فيه . واذا كنا نعيب هذا كله ، فلن يجوز لنا ان نكرر سيرته ، وان نعمل على شاكلته ، لا في الداخل ، ولا في الخارج .

وبتعبير آخر اننا نطمح في صعودنا الانساني الجديد ، الى صورة أخرى للحياة الانسانية ، لا الى تكرار صورتها القديمة . ونكاد نعتقد ،

بـل لابد أن نعتقـد أن الصورة الجديدة التي تتألف بطبيعة الحال مـن منظومة قيم جديدة ، لا تعيش او لا تستمر في الحياة ان لم يكن بـين يديها قوة جدية تدافع عنها ، وتعلي شأنها ، وتبرر ما فيها من نبل ؛ وتظهر للناس كافة انها جديرة بأن توضع فوق منظومات قيم الآخرين . واظن ان هذا يعني تلقائيا ضرورة الوحدة العربية ، لا لتكامل القوى ، وانعاش الدارة الاقتصادية وانجاح المشاريع الانتاجية ، بالدرجة الاولى، بل لكي تكون هذه الوحدة قوة تضمن لمنظومة القيم الجديدة ان تحيا ؛ لما فيها من نبل وسمو وشموخ وفضائل عالمية . ولا اظن ان تحليلنا هـذا سيفضي الى شيء آخر ، غير اعلاء قيم الوحدة والحرية والاشتراكية، اعلاءاً جديا ، رصينا يوثق به فعلا ، لا شكلا ، وكمضمون لا كشعار .

ويتساءل الانسان ، احقا فطنت الايديولوجيات السائدة الـى كـل هذه الضرورات ؟ وهل فطنت فعلا الى مضمونها الحقيقي ؟ اننا نعرف ان شعارات الثورة العربية استقرت منذ مدة غير يسيرة على شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية . وكانت الحرية هي التي تمثل الصعود الانساني ، وكانت الاشتراكية وسيلة من وسائل هذا الصعود . وكانت الوحدة هي القوة التي تضمن منظومة القيم الجديدة التي أشرنا اليها ، ولاسيما ارتقاء مستوى التواصل والانفتاح الانسانيين ، وغسل الارض مما سادها من ظلم وعنت وارهاق يمارس من قبل الانسان على الانسان الآخـر .

لكن الذي حدث فعـلا ان تكرار الشعارات ، تركز بالدرجة الاولى على الاشتراكية ، ووضع ، في الظل ، ذينك الشعارين الآخرين . وحتى التركيز على الاشتراكية ، لم يخل من العيوب المألوفة ، الناشئة عـن الحاجة الى البيروقراطية من جهة أولى ، والى حماية النظام وما يسمى بضرورات هذه الحماية من جهة اخرى ، مما انعكس على شعاري الحرية والوحدة ، واضعفهما اضعافا كبـيرا ، دون أن يحسن الى الشـعار الاشتراكي ؛ احسانا ملحوظا .

واظن ان هـذه الملاحظات ، وردود الفعل التي لابـد منهـا علـى الايديولوجيات السائدة ، ولاسيما الماركسية منهـا ، هي التـي اثارت بعض المفكرين وجعلتهم يقترحون ايديولوجيات جديدة اخرى . وانا اعرف من الايديولوجيات القومية الحديثة ، ايديولوجيتين مستقلتين بمبادىء مختلفة،احداهما هي التي يأخذ بها الدكتور نديم البيطار في كتبه الكثيرة، ولاسيما الايديولوجيا الانقلابية ، ومن التجزئة الى الوحدة ، ومن الطريق الاقتصادي الى الوحدة ، وغيرها كثير . ونلاحظ فيها ان هـذا الفكر يسخر اكثر تفكيره لمشكلة الوحدة ، ويقبل من اجلها ثورة تخضع لكل قوانين الثورات الوحدوية ، الاساسية منهـا والثانوية ؛ وعلى رأسـها وجود الاقليم ــ القاعدة الـذي يحتضن فكـرة الوحـدة ومشروعها ، وتشخيص السلطة ، اي تفرد القائد بهـا ، والقبول بالعنف الثوري ، والاستغناء عن الحياة الديمقراطية ، بدرجة او بأخرى ، خلال تحقيق العملية الوحدوية .

اما الايديولوجية الثانية فهي تلك التي يقول بها عصمة سيف الدولة في كتابيه نظرية الثورة العربية ، والاشتراكية العربية . وربما كان من الظلم لهذه النظرية ان نشير اليها في بضع كلمات ، الا ان الحديث هنا لا يهدف الى عرضها ، بل الى مجرد التذكير بها . ونقول ، لذلـك ، ان سيف الدولة لا ينسى ان يستعرض الايديولوجيات السائدة ، ولاسيما الليبرالية منها والدينية والماركسية ، ويوسعها نقداً ونقضاً ، ليأخذ بعد ذلك بمنهج جدلي ، يرى ان اعظم دروسه على الاطلاق هو أولوية الانسان ويقول : « ينذرنا جدل الانسان بالفشل الذي تستحقه اية حركة تحاول أن تفهم الواقع بدون ان تبدأ بالانسان ، أو تعد لتغييره ، بدون ان تبدأ بالانسان،أو تحاول تغييره ، أو تستهدف من التغيير مستقبلاً لا يكون فيه الانسان أولاً ، جاهلة او متجاهلة أن الانسان وحده هو اداة تغيير واقعة ، وان الناس وحدهم ، هم اداة الخلق في التطور الاجتماعي . »(١) .

(١) نظرية الثورة العربية . من منشورات دار الفكر،الطبعة الاولى ، بيروت ص : ١١.

ومن الواضح في هذه النظرية ، ان المنهج فيهـا جدلي ، معلـن عنـه وان الجدل هنا يتسم بالسمات التي نعرفها له في الماركسية ، تماما ، وأكاد أقول كلمة فكلمة . لكن النظرية هنا ان اخذت بهذا المنهج ، فذلك في اطار اساسي اول هو المبدأ والغاية ، اي الانسان ، وغائية بينة ، هي القومية ، اي وحدة الامة على ترابها الوطني .

ومن الواضح كذلك ان مبدأ « جدل الانسان » عنده هو بديل عـن المادية الجدليـة ، أو المادية التاريخية ، واننا لانعرف بـم يتميز هـذا المبدأ عن المبدأ الديمقراطي ، ومن اية ناحية . وما دام هذا المؤلف ينشيء كتابا كاملا عن « الاشتراكية العربية » فان ذلك يعني ان لايديولوجيته غاية مزدوجة ، هي الوحدة والاشتراكية ، من دون ان يجعل الحريـة واحدة من غاياته الواضحة ، ولو ان على منطق نظريته ان يقبل هـذه الحريـة .

وصحيح ان هذا المفكر يعارض المادية الجدلية ، بجدلية الانسان ، مرتقيا بذلك ــ فيما يرى ــ على مادية الماركسية . ولكن هـذا الارتقاء او هذا الصعود الروحي ليس من الاشياء التي استبعدتها الماركسيـة ، او التي لم تلح عليها ، بغض النظر عن ان التطبيق العملي قد وفى بما وعـد اولا . ومن جهة اخرى ، فأننا لا نعلم اخيرا ، متـى حققنا الوحدة والاشتراكية (مما يقتضي امكانية العمل السياسي او حريته ، سلفا ؛ وهذا مالا ينص عليه في النظرية) ماذا نفعل بمجتمعنا ، وماذا نفعـل بالتخلف ، وهل يزول هذا تلقائيا بعد وضع النظرية موضع التطبيق ؟ ولاي انواع الخير او الشر نعد هذا المجتمع .

ويمكن ان نقول ما شئنا من ثناء على فكر البيطار وثقائه واخلاصه ، وكل هذا مما يستحقه من دون اي مجاملة . الا ان هذا الرجل لا يكشف لنا ، بعد ان نقبل نظريته ، ماذا نفعل بعد تحقيق الوحدة ؟ ثم اننا نتساءل ،

ماذا نفعل بالوحدة نفسها ، ان نحن حققناها ؟ وهل هي وحدها كافية لافراز التقدم كنتيجة طبيعية ؟ ان الهند قد حققت وحدتها الضخمة من شعوب غير متجانسة . ولا شك انها حققت تقدما صناعيا افضل وارقى من كل البلاد المتخلفة ، وتتميز عن جميع شعوب العالم الثالث بقدرة هائلة على الاحتفاظ بالديمقراطية ، وحرية الراي ، والتعبير رغم ما يمزقها من تمادي الطوائف الدينية . فان كانت ما تزال متخلفة ، فليس ذلك لضعف الزراعة ، ولاضعف الصناعة ، ولا لهبوط قيمة الانسان ، ولكن لانها ما تزال متاخرة فيما يتصل بتحقيق العدالة الاجتماعية من جهة ، وبالمستوى المتوسط للدخل الفردي . ذلك انها لا تزيد على ثلاثة ملايين كم٢ (مساحة ليبيا مثلا) ، وفيها ما يتجاوز ال ٧٥٠ مليونا من السكان . وبالمقابل فان مساحة الولايات المتحدة تسعة ملايين كم٢ وفيها ٢٣١ مليونا من السكان ، فضلا عن فروق المناخ ؛ افتعجب اذن ان تكون الهند ضعيفة الدخل ؟ والان نتساءل : لم نخط نحن اية خطوة على طريق الوحدة ، بالرغم من تجانس شعبنا عرقيا وثقافيا ودينيا ؟ ولم لم نتقدم كثيرا على صعيد العدالة الاجتماعية؟ ثم لم يفقد المواطن العربي الجزء الاكبر من حقوقه وكرامته في اكبر مساحة من الوطن العربي ؟ واذن فهبنا حققنا الوحدة في هذه الشروط ، فاية منظومة من القيم هي التي تكون وراءها ؟ .

لاشك ان جواب البيطار سيكون جاهزا ، اذ سيقول : ان شعبا مجزءا بهذه القوة سيكون قد حقق معجزة كبيرة اذا هو حقق الوحدة، افيكون غريبا ان يفطن بعد ذلك الى ازالة التخلف ، والارتقاء على صعيد القيم الانسانية ؟ وجوابي انا ان البرازيل مساحتها قريبة جدا من مساحة الولايات المتحدة ، وذات الموارد الهائلة ، والموحدة منذ أن استقلت ، ليست بدولة متقدمة ــ ولو ارقى حالا منا ــ لا على الصعيد الداخلي،ولا على المستوى العالمي . وبالتالي فان تحقيق الوحدة لايضمن زوال التخلف بصورة آلية .

وأخيرا يمكن التساؤل عما اذا كانت قيمة الايدلوجيا هي في تركيبها النظري ، ام هي في عمق الايمان بها ؟ .... ومـا دامت امثـال هـذه الايديلوجيات لاتكسب انصارا ، ولاتنسى احزابا لنصرتها ، ولاتقيم دولا تحت شعارها ، فمن المرجح انها ستبقى ذات قيمة نظرية في تاريخ الفكر الأيديلوجي ، من دون أية زيـادة .

★ ★ ★

ليس من الغريب اذن ان يكون المثقف غائم الرؤيـة فيما يتعلـق بالابعاد الأيديلوجية لحياته . وحتى عندما نقول له:ان اركان الايديولوجيا التقدمية ثلاثـة هي الوحدة ، والحرية ، والاشتراكية، فانـه سيسألنا: من اي نوع ستكون هذه الوحدة ، وايـة حرية تلك الحرية ؛ احريـة الخضوع للقانون الاجتماعي ، ام للقانون الطبيعي وحده عندما يجهلـه ؟ وحريـة الضمير ام حرية النظام ؟

ولئن صح هذا النوع من الحيرة ، على المثقف ، فلا ريب أنه يصبـح بمقدار اكبر على الكثير من القيادات العربية . ذلك انها تأخذ بايديولوجية من نوع ما . وتجهد ، على قدر طاقتها ، في تحقيق النهضـة على هـذا الاساس (ان هي لم تضعه في الطريق) . لكنها تعمل وتعمل ، واحيانا في اطار قيادات على مستوى عال من الذكاء وقـوة الشخصية . ولكنهـا تكتشـف بعد حين قصير او طويل ؛ انها لم تحقق بغيتها كما تريد ،والفرق بين حيرة المثقف ، وحيرة الانظمة هو ان الاولى تثير التساؤل . وتدعو الى اعادة التأمل ، اما الثانية فتستغني عن الاثنين معا ، وتبدو واثقة كل الثقة من سلامة الطريق .

وفي رأينا انـه حا نالوقت لمراجعة شاملة لايدلوجيات النهضة كلها، وللممارسات التي اعتمدت في بلوغها ، بعد كل هذا الاخفاق . اذ ليس

طبيعيا أن تبدأ مصر نهضتها منذ قرنين تقريبا ، ويحكمها خلال ذلك الف نظام من محمد علي الى عبد الناصر ، ثم لايكون وراء ذلك الا التخلف المتزايد ، لابالنسبة الى « الذات » بل بالنسبة الى « الاخر » الذي تعتبره صورة للنهضة ومثالا لها . **والقضية اليوم انما تنحصر في هذا السؤال : ترى الى أي حد يملك العقل العربي موهبة القدرة على التأمل** في قناعاته الفكرية والعملية ، والشك — ولو قليلا — في سلامتها وتقييمها بصورة موضوعية انطلاقا من شك ديكارتي فيها جميعا ، ومن المقبول جدا أن يكون « غزاليا » على ماورد في المنقذ من الضلال .

الينابيع الفلسفيّة
لنظرية الابداع المهجريّة

د. أسعد دوراكوفيتش

الاثار الكاملة لادباء المهجر تدل بوضوح على ان تفكيراتهم النظرية عن طبيعة الادب لم تكن مستلهمة من مذهب فلسفي واحد فقط . والحقيقة ان الاسس الفلسفية لنظرية الابداع المهجرية تقع في اطار الانظمة الفلسفية المختلفة وتلك الحقيقة تطرح علينا قضية اثبات الى اية درجة يمكن تشكيل نظرية الابداع بتتابع (consequence) و بتواصل (coherence) كنظرية اذا كانت لها ينابيع في انظمة الفلسفة العديدة التي بينها علاقات المواجهة احيانا ان لم تكن بينها علاقات التعارض ايضا .

تظهر هنا قضايا اخرى يشير اليها عنواننا هـذا ونختـار منهـا قضيتين تبدوان لنا هامتين جدا بالنسبة لموضوع بحثنا . اولا ، تشكلت نظرية الابداع المهجرية في اطر تراث فلسفي معين وفي اطـر تـراث ادبي ايضا مساهمة في ذلك التراث ولو كان ذلك « بتمردها » رغم ان تلـك النظريـة كانت تسمى « مخربة » بمعنى الابتعاد والمدمية لكل تراث ـ حقا ، هي تبدو هكذا الى ان تبحث بكليتها . ثانيا ، قولنا ان تلك النظرية تنشأ في تراث تفكير فلسـفي معين /او في تراث التفكيرات الفلسـفية المعينة/ اي ان ينابيعها فلسفية ، يطرح هذا علينا فورا قضية اثبات طبيعتها من حيث المبدا : اذا اعتمدت الفلسفة كمنبع لها هل يمكن لنظريـة ابـداع كهذه ان تتفادى تلك الفلسـفة كملجا لها ؟ وبعبارة اخرى ، تطرح علينا المسالة : هل نظرية الابداع المهجرية تجريبية (normative) ام هـي تجريديـة (speculative) ، هل هي استقرائية (inductive) ام استنتاجيـة (deductive)(١) وما علاقتها بالنسبة لاثبات قواعد الابداع الادبية ؟

الجواب على هذه المسالـة الجوهرية يطلب ان نثبت قبل ذلـك الينابيع الفلسـفية الاساسية للنظريـة التي تقترب من العلوم المتفوقـة

---

(١) بما ان هذين الاصطلاحين هامان جدا لبحثنا لابد لنا من تدقيق معناهما : نقصد باصطلاح « النظرية التجريبية » نظرية تنشا على اساس بحث الاثار الادبية في التراث الادبي وتلك الاثار الادبية التي يمكن ان نسميها ب « المثل العليا » . تثبت تلك النظرية التجريبية في الاثار الادبية الموجودة في التراث الادبي ك « مثل عليا » قواعد عامة للابداع الادبي ثم تطرح تلك القواعد نفسها كمقاييس الابداع الادبي العامة .

اما « النظرية التجريدية » فهي تفعل العكس : لاتبدا من الاثار الفنية بل تبدا من المبادىء العامة / الموجودة في الاغلب في الانظمة الفلسفية / وتثبت باية طريقة حققت تلك المبادىء في الاثار الفنية ومن حيث ذلك التحقيق تقدر الاثار الفنية . هـذا المنهج معروف في استطيقا هيجـل وقولـه البارز ان الاثار الفنية ليست سوى « اظهار الفكرة في الاشكال الحسية » .

عليها واحيانـــا تختلط بها كما سنرى فيما بعد . ويجب ان نعرف عند ذلك انـــه ليس من الممكن ان ندخل بعيدا ونحلل تحليلا تفصيليا المذاهب الفلسفية التي الهمت ادبـــاء المهجر . وبالرغم من ذلك نعتقد ان التعريف بجوهر الينابيع الفلسفية لنظرية الابداع المهجرية سيكون كافيا لتحديد اصلها والاشارة الى امكانيات بناء النظرية التي سنتناولها فيما بعد من جميع النواحي .

اثبات الاصل الروحاني لنظريـــة الابداع المهجريـــة طلب منا جهدا إضافيا متعلقا بكشف ذلك الاصل الموجود في اكثر من جهة . في المرحلـــة الابتدائية من بحثنا بدا لنا ان ادباء المهجر كانوا يواجهون المشاكل التي يصعب حلها وذلك بالنسبة لجهدهم في ان يشكلوا نظرية الابداع بتواصل نظري ، وخاصة ان يشكلوها بمعناها التقليدي . وخيل الينا اولا ان اسباب ذلك تكمن في عدم قدرة هؤلاء الادباء على التأملات التتابعية ولكننا استنتجنا بعد ذلك ان السبب الاول يكمن في قبول الاسس الاوليـــة من الانظمة الفلسفية التي تختلف في بعض نواحيها . معنى ذلك اننا لـــم نستطع فورا اثبات فهمهم لطبيعة الفن ، اي اثبـــات الاصـــل الفلسفي لنظرية الابداع لديهم ، بل كنا مضطريـــن بـــالمعنى الحقيقي لاكتشاف التاثيرات العديدة في اثارهم وعلى متابعة خيطها الاساسي . يتميز بهذا التعقيد خاصة تفكير نعيمة وجبران اللذان كانا يحاولان في ادب المهجر كله ان يحلا قضايا الادب كالفن وذلك بشكل منظم ، بينما الاخرون كتبوا عن ذلك بالصدفة وفي اغلب الاحيان كصدى لنعيمـــة ولجبران اللذان كانـــا يوجهان كل الادباء .

لاشك في ان المتســامية (transcedentalism) الامريكية تحت قيادة امرسن (Emerson) اخذت مكانها « فخريـــا » بـــين التفكيرات الفلســفية التي كان ادباء المهجر يشربون من ينابيعها . يمكن ان نرى في مستويين مشابهات او حتى تطابقات بينهم وبين تفكير امرسن . في المستوى الاول يظهر بعض التطابقات لمواقف جبران وامرسن مـــن

الحياة اليومية والعملية . ولو حللنا تلك التطابقات تحليلا اعمق لانغمرنا في منهج مذهب الايجابية (positivism) نكتفي هنا فقط بذكر بعض التطابقات والمشابهات والتي نعتقد ان لها علاقة قريبة من الاتجاه الفكري للكاتبين .

مع انه لم يكن قسيسا مثل امرسن فقد تم تحريم جبران من الكنيسة سنة ١٩٠٤ كما حدث مع امرسن من قبل(٢) وقبل ذلك كان هو يكافح الكليريكالية والكنيسة كتنظيم وفي الحقيقة كانا كلاهما متدينين تماما - الفردية (individualism) القوية ، قدرة الخطابة وطبيعتهما الذاتية بشكل عام كانت خصائص مميزة لامرسن وجبران ولذلك يمكننا الحكم على جبران مثل الحكم الذي قيل عن امرسن :« ان تاثير امرسن على روح معاصريه ليس دفعا تبكيا ولا ثقافيا بل انما هو التاثير الذاتي بالضبط »(٣) وهناك تطابقات اخرى ولكن الاهم تلك التي برزت في مستوى التفكيرات الفلسفية(٤) .

لم يكتب جبران عن امرسن وعن المتسامية مع انه من الممكن ان نثبت بينهما مشابهات كثيرة ، ولكن نعيمه عبر عن اعجابه جهرا بمعلمه . ولا تعرض الجمل التالية جوهر المتسامية لامرسن فحسب بل تدخلنا الى نظرية المتسامية لدى نعيمه وجبران : « اما الحركةالفكرية

---

(٢) عن تمرد امرسن ضد « الدين النظامي » وخروجه عن الكنيسة انظر .
Emerson , The Selected Writings , New York , 1950 , P. XIII .

(٣)
M. Mint , in : Emerson , Ogledi , Beograd . 1980 , P. 129 .

(٤) من المهم ان جبران كان يعيش بالقرب من المكان الذي اقام فيه مؤسسي المتسامية . نجد المتسامية في المراجع باسم « المتسامية الكنكوردية » التي نشاتت كمدرسة تفكير خلال الثلاثينات والاربعينات من القرن السابق واسمها هذا يوضح مكان نشاتها وهو مدينة كنكورد الصغيرة التي تقع بالقرب من بوسطن . عاش جبران خلال النصف الاول لهذا القرن في بوسطن واحيانا في نيويورك .

التي قام بها امرسن بمعاونة بعض الكتاب فقد عرفت باسم « الترانسندنتاليزم»والكلمة تعني بلوغ الحقيقة عنطريق البديهةوالفطرة والحس الباطني التي تتخطى جميعها حدود الحواس الخارجية ./../ وان الكون ليس بغير نظام او منظم . فالافضل للانسان المنطوي كيانه على ذلك النظام ان يمتثل لـه بدلا من ان يعانده . ففي الامتثال الراحة ، وفي العناد الشقاء »(٥) .

في اساس فلسفة نعيمة وجبران كلها تقع الثقة اللانهائية بقدرة المعرفة «عن طريق البديهة » او الوجدان والخيال بالضبط وبالعكس من ذلك عدم الثقة بالتجريبية (Empiricism) وبالايجابية عند المعرفة العلمية . والى اية درجة كان تفسير نعيمه لامرسن قريبا من فهم الخيال والعقل لدى نعيمة ذاته يمكن ان توضح لنا الفكرة التي طورها نعيمه في اغلب نصوصه : ان العقل الذي يبالغ الناس في مدحه ليس سوى طفل مقود بالخيال . يجب ان نحرر الخيال من قيود العقل وعندئذ يمكننا ان نطير بالخيال الى اي ركن في الكون وان نرى ذاتنا في كل ما يمكن رؤياه وان نشعر عند ذلك ، اي ان ندرك عند ذلك اننا الحياة الشاملة التي لا تتجزأ(٦) .

نستنتج من هذا ان نعيمه في الحقيقه لا ينكر تماما امكانية وقيم معرفة العلم ولكنه لا بد ان تكون تلك المعرفة مقودة بـ خيال وليس من الضروري ان تكون المعرفة الخيالية في العلاقة مثل هذه العقل.وبالعكس ان الحقيقة اللاعقلانية التي يبلغها الخيال حرة من « قيود العقل » وتظهر تلك الحقيقة حقيقة ذاتية . ووفقا لذلك فلا توجد منافسة بين الحقائق العلمية والحقائق التي نبلغها بالخيال : الحقائق الاولى يتم الوصول اليها

(٥) نعيمه ، « في الغربال الجديد » ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ١٢٢ — ١٢١ .

(٦) نعيمه ، « زاد المعاد » ، بيروت ، ١٩٧٢ وخاصة في نصه بعنوان « الخيال » في نفس الكتاب .

عن طريق العقل والثانية عن طريق الخيال او دون العقل وهذه الحقائق الثانية افضل من الحقائق العلمية او الموضوعية . ونلاحظ توا ان هذا الراي ليس ميزة المتسامية فقط بل الرومانطيقية تتميز به ايضا ولكن هذا يستحق تحليلا خاصا .

ان تنمية القدرة على المعرفة البديهية والخيالية متعلقة عند امرسن ونعيمه وجبران بمذهب الفردية (Individualism) الذي لم يهتم الاخيران به في نصوصهما مثل امرسن ولكنه موجود في نظام التفكير لديهما.(٧) ففي الفصل الذي يحمل عنوان (Self - Reliance)استدرج امرسن مذهب الفردية الذي لا يمكن ان نسميه بالعلاقة السلبية بالعالم وذلك قريب ايضا من فهم جبران : « من السهل تعايش العالم حسب رأي القوم ؛ من السهل العيش في الانفراد حسب ذاتية ؛ ولكن الانسان العظيم هو ذلك القادر على احتفاظ استقلال الوحدانية بهدوءه العظيم وذلك بين العامة »(٨) . وهذا لا يزعج امرسن اذا كان مفهوما بشكل خاطىء . وبالعكس : « فاذا كان الانسان عظيما فمعنى ذلك انه غير مفهوم »(٩) وفي الحقيقة كان امرسن في اكثر الاحيان ضد اشخاص يتمتعون بالنفوذ ، وخاصة بالنفوذ الديني(١٠) . وضد التقليد معتقدا بأن « الاكتفاء الذاتي (SelfReliance) على مستوى أعلى لا مناص له من اثارة الثورة في اعمال الناس وعلاقاتهم كلها ـ في دينهم ، وفي ثقافتهم ،

(٧) عن فردية امرسن انظر :
Povijest svjetske khjizevnosti , VI ,
Zagreb , 1966 , P. 314 ; Istorija khjizevnosti Sjedinjenih Americkih Drzava , I , Cetinje , 1962 , PP. 292 - 313 .

(٨) Emerson , « Self - Reliance » , in : op. cit ., p. 150 .

(٩) Ibid ., P. 152 .

(١٠) Emerson , The Selected Witings , P. XIII .

وفي اهتماماتهم ، وفي طريق حياتهم ، وفي روابطهم ، وفي امتلاكهم ، وفي مواقفهم التجريدية »(١١) وقد شدد نعيمه وجبران ايضا على اهمية « الاكتفاء الذاتي » (Selfreliance) الذي ظهر عندهم ، بالمناسبة ، في الهجومات العديدة على نظام الكنيسة ، على الكليريكالية ، علـى نظـام التعليم والتربية كلها التي لا بد من تحطيمها من اساسها لكي ترتقي عند الشبان ، قبل كل شيء ، قدرة المعرفة الخيالية ، اي القدرة على المعرفة الذاتية . ان انظمة المؤسسات الموجودة كلها كاذبة وخاطئة وغير قـادرة على التوصل الى أسرار الكون والوجود(١٢) .

الغاية الاهم في حياة الانسان ، كما يكتب نعيمه ، هي معرفة الاله ولا تنال تلك المعرفة عن طريق التعليم - المدرسة مهما كان جيدا ذلـك التعليم(١٣) . بلوغ هذه الغاية هو السعادة الاعلى التي يمكن الانسـان ان يبلغها على الاطلاق ويمكن ان يبلغها قبل كل شيء بمعرفته لنفسه لان الانسان «مقدس بروحه » وبشعوره بالطبيعة كانبعاث سنة الاله الكامل والشامل(١٤) كأننا نسمع هنا صدى تأملات امرسن : « ليس العالـم نتيجة النواميس المختلفة ، بل هو نتيجة الارادة الواحدة والعليم الواحد» ومعنى ذلك «ان التعليم الواحد حاضر في كل مكان ، في كل اشعة لنجم ، في كل موجة على البحيرة .

(١١) Ibid ., P. 162 .

(١٢) لم يهتم جبران ونعيمه بذلك في اثارهما النظرية فقط بل ايضا في عدد كبير مـن قصائدهما وقصصهما . لذلك لا حاجة هنا الى الدلالة على الاثار كلها التي تتحدث عن ذلك . ان مجموعة (الارواح المتمردة) كلها تقريبا تروى عن عدم الاعتـراف بالاشخاص الذين يتمتعون بالنفوذ وعن تحطيم التقاليد . اما آثار نعيمه فجدير بالذكر خاصة كتابه « زاد المعاد » .

(١٣) نعيمه ، « زاد المعاد » ، ص ٤٧ - ٤٦ .

(١٤) قارن : « المعرفة والمدرسة » في كتاب نعيمه « زاد المعاد » .

وادراك هذا الناموس يثير في العقل احساسا نسميه دينيا وهو سعادتنا الاعلى »(١٥) .

يمكننا أن نبسط اقتباسات كثيرة جدا مثل هذه لتقديم براهين تطابقات الفهم لنعيمه وجبران بفهم امرسن ولكننا نكتفي بعرض جوهرها .

وجد نعيمه وجبران في تفكير امرسن عناصر النظريات الشرقية الفلسفية والدينية واعجبهما بشكل خاص وجود تلك العناصر عند المفكر الامريكي . ومن المعروف ان امرسن كان منفتحا امام المفهومات الشرقية ازاء العالم(١٦) . ان « نظرية الكون » لديه نوع من « وحدة الوجود المجددة » (١٧) (Pantheism) ، والتي اصلها يعود الى وحدة الوجود الشرقية . وهذه نقط الانطلاق التي يمكن المقارنة ابتداء منها بين امرسن وبين نعيمه وجبران بالنسبة لفهم الطبيعة والوجود كله لديهم .

للعلاقة بالطبيعة مكان خاص في مسامية امرسن(١٨) مثلما هو في فلسفة نعيمه وجبران ويمكن ان نفهم تلك العلاقة فقط في الاطر الواسعة لتفكيرهم . في الحقيقة . ان الكون انبعاث الاله الذي يمكن معرفته قبل كل شيء عن طريق معرفة الانبعاث ذلك ولذلك لا بد من الاتجاه الى كمال الطبيعة التي تدل من كل بد على وجود خالقها الكامل . أو بعبارة اخرى، ان الاله موجود في كل ما خلقه ولكنه في نفس الوقت متسام transcendent في السماء ومعنى ذلك انه في الوقت ذاته في العالم وخارجه . وقد ذكرنا سابقا ان نعيمه ، باعتقاده ان الروح مقدسة بذاتها . شدد على ان الاله

---

(١٥) Emerson , « An Address » , in : op . cit ., pp. 69 - 70 .

(١٦) Istorija knjizevnosti sjedinjenih Americkih Drzava, I, pp. 330-307

(١٧) R. Wellek , Ahistory of Modern criticism 1750 - 1950 , Yale univensity Press , 1965 , P. 165 .

(١٨) عن الحب العظيم لامرسن نحو الطبيعة لدينا حقيقة ان في اساس صداقته بالاديب الامريكي Thoreau كان تعصبهما بالطبيعة .

لا يظهر في الطبيعة فحسب بل يظهر في وعي الانسان كنتيجة وهذا الاعتقاد عند نعيمه سيبرز مهما جدا بالنسبة لتطور تفكيره فيما بعد . وليس صحيحا اذا فهمنا الطبيعة هنا بمعنى الجزئيات غير المرتبطة والتي تدل على الناموس الاعلى ، بل يجب ان نفهمها ككلية « متركبة » من الاجزاء التي تقع ، من ناحية ، في الاتصال المعين ، في الارتباط المعين ، نظرا لانها ، من ناحية اخرى ، تدل على الاله او على الناموس الاعلى ، الذي بذاته لم يخلق العالم الا ككل معنوي . .

يمكن ان نقتبس هنا هيغل الذي يطابق حديثه عن وحدة الوجود الشرقية فهم نعيمه وجبران المتعلق بوحدة العالم والاله . وفقا لذلك الحديث ، فان الاله موجود (imanent) في كل الجزئيات ولكن نظرا لانه بعين اعتبار تجرده ، خارج الواقعية التجريبية للجزئيات ، فهو متسام في نفس الوقت ، ولا بد من رؤية تلك الجزئيات كلها كالكل ، كالعالم ، كالروح الشاملة ، لان الخالق الكامل لم يخلق الجزئيات كجزئيات بل انه قد خلق كلية الجزئيات(١٩) . هكذا عندما يتكلم نعيمه عن الجزئيات يقصد دائما بالجزئيات بمعنى الكون ، اي انه يتكلم عن الجزئيات التي يتكون منها الكون . وبذلك المعنى يكتب جبران ايضا ان الانسان يصبح كاملا « عندما يشعر بانه هو الفضاء ولا حد له » ، عندما يشعر بوحدته بالطبيعة وعناصرها كلها . ولما يحس كل ذلك ، يصبح كاملا ويصبح ظلا من ظلال الله(٢٠) ويقول امرسن ايضا : « في الطبيعة تتدفق فيّ تيارات الكائن الشامل ، انا جزء او ذرة من الاله . . . ان ذروة المتعة التي يعطيها الحقل والغابة هي الاتصال الصوفي بين الانسان والنباتات . انا لست وحيدا ولا غير معروف بي »(٢١)

(١٩) Hegel , Estetika , II , Beograd , 1970 , PP. 71 - 72 .

(٢٠) جبران ، « البدائع والطرائف » ، في « المجموعة الكاملة » ، ص ٥٢٩ .

(٢١) Emerson, , « Nature » , in : op. cit ., pp. 6 - 7.

لا شك في ان « الاكتفاء الذاتي » (Self - reliance) والفـرديـة (Individualism) قد اصبحتا الان اوضح : ان الوصول الى السعادة اللانهائية عن طريق معرفة الناموس الاعلى يتم عن طريق الخيال الذي هو القدرة الفردية .

في رؤيا نعيمة ازاء الكون يوجد الكون ككلية الجزئيات ، اي يوجد في وحدة مع الخالق العظيم الذي يدل عليه الكون كانبعاث ذلك الخالق العظيم . انبعاث الخالق ، اي وجوده في الطبيعة كلها أو في العالم يفرض المعرفة عبر تلك الطبيعة . لقد بلغنا مصطلحا اساسيا يستفيد منـه نعيمه في تأملاته ويمكن ان نطرحه الان لاننا قد رأينا مـن قبل معنـى للجزئية في فهم الكون لدى نعيمه . ذلك المصطلح هو « وحدة الوجود » ويمكننا أن نعتبره في نفس الوقت تعريف الفلسفة لنعيمه لان « وحـدة وحدة الوجود بالمعنى الذي سبق ذكره ليس سوى مذهب الوهية الكون (Pantheism) والشعور بالطبيعة وفقا لذلك المذهب الذي هو مشترك عند نعيمه وامرسن . نجد نفس الشعور عند جبران بالرغم من انه لـم يكتب عن ذلك كثيرا كما كان يكتب نعيمه . وفي حديثه عن نظام جبران الميتافيزيكي يلاحظ Sherefan جيدا ان ذلك النظام هو مذهب الوهية الكون ومعنى ذلك أن الاله والطبيعة والانسان بالنسبة لجبران هو وحدة الوجود ، مع ان كلا منهم ليس نفس ما هو الاخر(٢٢) .

الشعور بالطبيعة وفقا للاعتقاد بألوهية الكون قد انتج عند هؤلاء الادباء شعورا بكل ما يوجد في الطبيعة كانه روحاني نظرا لان انبعاث الاله يظهر فيه . لذلك ، انالتركيز على مشاهدة الطبيعة الروحانية يذهب احيانا الى ارتفاع الطبيعة الروحانية الى درجة روحانية مستقلة ولكن في اغلب الاحيان يبقى على مستوى مشاهدة الجمال الطبيعي الشاسع نظرا

(٢٢) Sherefan , A Third Treasury of kahlil Gibran , New Jersey , 1975 , p. 390 .

لان الناموس الكامل لا يخلق شيئا غير كامل كغير مثيل له . يمكن ان نتوقع هنا ان يرتقي الشعور بالوهية الكون في فلسفة هيدونية (hedonism) او في فلسفة الهيدونية .

معنى ذلك ، اذا اخذت الطبيعة كجمال فمن المتوقع ان يطلب فيها بعد ذلك ما هو الاجمل فيها وان يتمتع الانسان بها كأجمل مظهر للاله لان تلك الطبيعة قد خلقت ، وفقالذلك ، ليصل الانسان بوساطتها الى الاله .

وتدلنا على توقع الهيدونية مقولة (Category) الوهية الكون المهمة عند نعيمة وهي « الدهشة » التي لا يمكن فهم الوهية الكون لديه دونها . ففي اماكن كثيرة وخاصة في نصه عن طاغور (Takur)(٢٣) يكتب نعيمة عن الدهشة كمرحلة اولية في معرفة الطبيعة وعن الوصول عبرها الى معرفة الاله . فمع ملاحظة الجمال الموجود في كل مكان يصبح مدهشا به وهو واع ان في استطاعته ان يكشفه تماما فقط حين يشعر به بتوتر وعندئذ تدهشه دهشة اقوى قدرة الناموس الاعلى على خلق الجمال والكمال فقط . ومعنى ذلك ان الانسان ، في الحقيقة ، ينال السعادة الاعلى عن طريق اكتشاف العالم وشعوره به كجمال لانه ببلوغ تلك السعادة يحقق غاية وجوده ـ المعرفة (٢٤) . لاجل ذلك لم يؤمن نعيمه ، « مثل طاغور » ، بوجود الاشياء القبيحة ، بل هو كان يتميز بعبادة الروعة(٢٥) . وحول هذا يطرح السؤال : كيف يمكن تجنب الانغمار في « روح » الاشياء الرائعة بمعنى الاتصال الهيدوني بها وخاصة لان وحدة الوجود عند نعيمه معناها الوحدانية الشاملة التي تقود من كل بد الى الغبطة وراحة البال ؟

ومن ناحية اخرى ، فقد شددنا على اعتقاد نعيمه وامرسن انه من الافضل ان ينصاع الانسان الى الناموس الاعلى وان لا يقاومه ، وذلك

(٢٣) نعيمه ، « في الغربال الجديد » ، ص ٢٢ ـ ٢٤ .

(٢٤) اعتقد جبران مثل ذلك وتتحدث عن اعتقاده هذا فيما بعد .

(٢٥) نعيمه ، « في الغربال الجديد » ، ص ٢٩ .

الانصياع ليس سوى طاعة لتنظيم العالم الملائم واقدار الناس . لقد نظم هذا العالم « الكامل » بطريقة ان سيرنا فيه ليس صدفيا قط كما انه ليس صدفيا اي حدث حياتنا ـ ان التحتيم بالقضاء والقدر (Predestination) يجعل كل تمرد لامعنى له(٢٦). وينتج عن ذلك حتى ان الم الانسان من حين الى آخر ايجابي و « رائع » لان له غاية معينة في النتيجة الاخيرة . ووفقا لذلك فان الشكوى من ذلك الالم تمرد في ذاته(٢٧). ولكن نتيجة هذا الاعتقاد ليست المعايشة السلبية للغبطة بل نوع من راحة البال التي تبرر كل شيء ولكنها ايضا تكتشف في كل شيء الجمال الذي يسبح خالقه(٢٨).

ولكن مع انه يبدو ان الدروب كلها تقود الى نوع خاص من الهيدونية فقد تجنبها نعيمه وجبران في بداية تفكيراتهما ويظهر هنا من جديد التشابه بينهما وبين امرسن . وفي تتابع النص الذي يفصح فيه على اتصاله بالطبيعة وتوقله فيها والتماجه بها يقول امرسن : « بيد ان من الواضح ان القدرة على اثارة هذه المتعة لا توجد في الطبيعة بل في الانسان او في تناسقهما المشترك »(٢٩). ومن ناحية اخرى ، قد شددنا من قبل على اهمية فكرة نعيمه التي تقول ان من الممكن معرفة الناموس الاعلى

---

(٢٦) كان جبران ، مثلا ، معتقدا بالتحتيم بالقضاء والقدر الى درجة انه كتب كيف كانت ولادته في لبنان بالضبط وفي بشراى ١٨٨٣ ولكل حدث من عمره غاية اخيرة في وجوده العالم اللانهائي . نعيمه ، « جبران في الاره العربية » ، في : جبران ، « المجموعة الكاملة » ، ص ٨ . من الممكن ان نعيمه قد افصح عن تلك العقيدة باحسن طريقة في كتابه « النور والديجور » ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ١٤٦ ـ ١٢١ .

(٢٧) كتب نعيمه على هذا النمط في باب « ينابيع الالم » من كتابه « زاد المعاد » ، ص ٦١ ـ ٦٩ .

(٢٨) Sherefan , op . cit ., p. 400 .

(٢٩) Emerson , op. cit ., p. 7 .

والكامل قبل كل شيء بمعرفة الانسان ذاته لان الانسان مقدس بروحه(٢٠). ان اهمية هذه الفكرة كبيرة جدا بالنسبة لتطور الوهية الكون لديه .

نريد القول ان نعيمه قد حدد بذلك الحاجة الى تركيز اكتشاف الاله في اشياء الطبيعة كلها : مع انه اعطى المكانة الخاصة للطبيعة التي تدهش بروعتها ففي الحقيقة هـو قـد فضل عليها الانسان . ومعنى ذلـك ان الاحسن من كل ما خلق هي **الذات** التي يظهر فيها انبعاث الاله الشامل بأفضل الوسائل وبأعقد الطرائق في نفس الوقت . وبتركيزه على الذات يتجنب نعيمه الوهية الكون الصافية ويطلب ان تتجه الذات الى نفسها قبل كل شيء لانها تبلغ بمعرفتها لنفسها السعادة العليا التي يمكن بلوغها على الاطلاق وهي معرفة الاله . معنى ذلك ، وهنا اشارة مرة ثانية الى وحدة الوجود ، ان الذات عن طريق المعرفة عبر الخيال تشعر بأنها في الوحدانية التي لا تنفصل عن الاله الذي ينتمي اليه الانسان لان الالـه خالقه ولان الانسان راجع اليه وأيضا لان الاله موجود في وعيه الذاتي(٢١).

هكذا يصل نعيمه وجبران الى التصوف . وعندما يشعر الانســان بوحدة الوجود على النمط السابق فلا يمتزج بالطبيعة ولا يندمج بهـا فحسب بل يمتزج بالاله عـن طريق توسع ذاتـه (Subjectivity) وعندئذ لا يشعر بأي فرق بينه وبين الطبيعة وبين الاله ككائنات منفصلة ومستقلة . فالامتزاج التام أو الشعور بالوحدة المطلقة ليس سوى حالة

(٢٠) نعيمه ، « زاد المعاد » ، ص ٤٦ .

(٢١) قصيدة نعيمه « من انت يا نفس » تتحدث كلها عن النفس كافاضـة او انبعاث الاله . قارن : ملحس ثريا ، « ميخائيل نعيمه ـ الاديب الصوفي » ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٥٥ . بذلك المعنى تشبهها قصيدة نسيب عريضة « يا نفس » . قارن احسان عباس ، « الشعر العربي في المهجر » ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ٦٦ ، وايضـا : Badawi , A Critical Introduction to Modern Arabic Poetry , cambridge , 1975 , pp. 193 - 195 .

الوعي الخاصة التي يظهر فيها احساس بالغبطة والابدية ولا يمكن وصفه، وطبعا يبلغ الانسان ذلك الاحساس فقط عبر الخيال . ان حالة الوعي هذه تسمى احيانا بـ trance بيد انه في فلسفة نعيمه قمة **المحبة** التي نجدها عند المتصوفين في نفس المعنى . بالرغم من ان نعيمه لا يستعمل ذلك المصطلح فان الامتزاج المطلق ليس سوى **فناء** الذات في هوية الاله التي نجدها عند المتصوفين .

ان فلسفة نعيمة وجبران ، مثل فلسفة امرسن ، ليست اصيلة في نواحيها الكثيرة . ويجب علينا الان ان نثبت ما هي الانظمة الفلسفية التي كان ادباء المهجر يستلهمونها باستثناء متسامية امرسن وعبر متساميته . لانه من الواضح ان جذور متسامية امرسن تعود الى المسيحية ، الى الاديان الشرقية ، الى الفلسفة المثالية الكلاسيكية وغيرها(٣٢) .

وليس دون اهمية حقيقة انهم كانوا مثقفين دينيا وخاصة نعيمه الذي كان يتعلم في المدارس الروسية الارثوذكسية وكان الكتاب المقدس المترجم الى العربية اول نموذج في الادب والفلسفة رآه ادباء المهجر بعيونهم(٣٣) ولذلك فان جزءا من متساميتهم له اصل في المسيحية التي تعلم ان الاله في نفس الوقت متجرد ــ اذا اخذ بتجرده ــ وموجود في العالم لانه يظهر في الطبيعة وفي وعي الانسان . وعندئذ جدير بالعلم اننا نجد الفكر الشبيهة عند الافلاطونيين الجدد وفي نظرية العارفين الذين يعتبرون ايضا ان العالم انبعاث الاله . ويمكن ان نجد تاثيرات فلسفة كانت (Kant) : فمع مصطلح « المتسامية » ، الذي اريد به الميتافيزيكية خلال القرن السابع عشر ، اخذ كانت بمعنى المعرفة غير المبنية على تجربة .

---

(٣٢) Povijest svjestske knjizevnosti, VI , P. 313 ; Istorija knjizevnosit Sjedinjenih Americkih Drzava , I , pp. 300 - 307 ; wellek, Op . Cit , P. 165 .

(٣٣) الاشتر ، « فنون النثر المهجري » ، لبنان ، ١٩٦٥ ، ج١ ، ص ١٩٧ .

هذا ولكن يبدو لنا ان ينابيع فلسفة نعيمه وجبران تقع باغلبيتها في الشرق الاسلامي الذي كان يتأثر بالاديان الهندية والفاوسية القديمة منذ عصر العباسيين /١٢٥٨ ـ ٧٥٠/ . واثناء بحثنا عن تشابك التاثيرات في ادباء المهجر وخاصة في نعيمه وجبران وجدنا انهم اخذوا كثيرا من الفلسفة الاسلامية مع تلك التاثيرات التي تأثرت بها الفلسفة الاسلامية نفسها . ولاجل ذلك كانت قريبة منهم خاصة تلك المواقف التي رأوا فيها علاقة معينة بالفلسفة الاسلامية .

عرف نعيمه وجبران جزءا من الفلسفة الاسلامية التي اطلعا عليها في اصلها . وقد تأثرا بشكل خاص بابن سينا /١٠٣٧ ـ ٩٩٠/ وبقصيدته الصوفية عن هبوط النفس . وهناك ايضا تاثير الفلاسفة المسلمين او بعبارة ادق هناك تاثير الصوفيين الذين بين عقيدتهم وعقيدة اديبينا تشابه كبير . وعندما نبسط جوهر التصوف لا نحتاج دائما الى المقارنة بينه وبين فلسفة نعيمه وجبران لان التشابه سيبرز بنفسه نظرا لاننا قد رأينا المجمل من فلسفتهما .

يشعر الصوفي بالعالم كانه اشراق الاله ولكنه لافي اجزائه المنفصلة بل في العالم ككل . وحينئذ للاشياء الدنيوية ،التي يمكن بلوغها بالحواس، وضع الوهم او الخدعة لان وراء تلك الاشياء او فيها محتوى الهي . فالغاية الاساسية لوجود الانسان هي ان يبلغ ذلك الذي يشرق . وايضا، نظرا لان الذات اشراق لله ، تطرح الغاية على الذات ان تبلغ المعرفة عن طريق الالتفات الى اعماقها . وبعبارة اخرى توسع الذات حدودها بالانغمار التأملي حتى تصل الى الحالة الخاصة التي تبلغ فيها المعرفة عن اصلها الالهي . وبالتأمل المستمر / وبالانفراد الذي يهدي الى الزهد/ يتم الوصول الى الحال trance الذي يتم فيه تجاوز الطبيعة او المادة الى الاتحاد التام بالله . ان الصوفي الاسلامي البارز السهروردي /١١٩١ ـ ١١١٥/ قد وصف اثبات الهوية هذا في خمس مراحل : ١/ « لا اله

الا الله» ، ٢/ «لا هو الا هو» ، ٣/ «لا انت الا انت» ٤/ «لا انا الا انا »، ٥/ « سيفنى كل شيء الا وجهه » (٣٤) .

في الحال الذي يتحد الصوفي فيه بالله محققا الغاية الاخيرة لوجوده بضيع الاحساس بالزمن والمكان ، بالاعلى والاسفل ، بالغد واليوم ــ يتحد الكل بالباقي الواحد . ان حال السعادة التي تشبه المحبة يتبعها اثبات الهوية هذا الذي لا فرق فيه بين الاله وبين الذات او حسب قول السهروردي : « لا انا الا انا »(٣٥) . ويسمي الصوفيون هذا الحال بـ « الفناء » وبالنسبة لنعيمة ايضا قمة المحبة هي اتحاد الاله والانسان والطبيعة بشكل مطلق ــ اتحاد الكل بالكل ــ الاله والانسان واحد في ذلك الحال : لا زمن ولا مكان ، لا حياة ولا موت . لا ماضي ولا قادم ــ كل يوجد في لحظة واحدة وفي مكان واحد(٣٦) .

وجدير بالقول ان الفناء الصوفي ، من ناحية ، والاتحاد المطلق عند نعيمه ، من ناحية اخرى ، لهما معادل في nirvana البوذية(٣٧) . وبالاضافة الى ذلك ، فان نهج الفكر عند نعيمه وجبران ، او فهم الذات الذي يندمج بالاله ، يشبه كثيرا الاتحاد البرهمي بمعنى اثبات الهوية التام بين Atman و Brahman(٣٨) .

يمكن ان نضيف الى تشابه فلسفة نعيمه وجبران بالتصوف مثلا مهما يكمن في الاستعمال المشترك والفهم المشترك لمصطلح « المرونة » .

---

(٣٤) نحن متاسفين لاننا لم نستطع ان نجد اصل الكلمات هذه للسهروردي ولكن نعتقد بصحة جوهرها واقتبسناها من :
Cedomir Veljacic , Razmedja azijskih filozofija ,II , zagreb , 1978 , P. 364 .

(٣٥) Ibid .

(٣٦) قارن : عيسى الناعوري ، « ادب المهجر » ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٣٨٠ .

(٣٧) C. Veljacic , op. cit .

(٣٨) Anawati et Gardet , in : klasicna kultura islama , I , ed . Nerkez Smailagic , zagreb , 1976 , p. 224 .

نعيمة يسمى بـ طريق الادراك ، أي الاتحاد بالله كما قد وصفناه . اما الصوفيان الحلاج /٩٢٢ ـ ٨٥٧/ والسهروردي فالمعرفة عندهما «اتجاه منهجي » في اثبات الهوية بالكائن /الاله/ اي « طريق نظرية المعرفة » ، كما يترجم الباحثون عادة مصطلح « المعرفة » . واثبات الهوية ذلك يتخطى القدرة والميول للعقل العملي(٣٩) .

ومن الموضوعات المركزية عند نعيمه وجبران موضوع لا يبدو فقط في نصوصهما ـ التي تأملا فيها عن العالم والاله بل استدرجاه ايضا في قصصهما وذلك الموضوع هو تقمص الارواح والتناسخ .(٤٠) يقال عادة انهما استلهما تقمص الارواح من القصيدة البارزة عن هبوط النفس للفيلسوف الاسلامي البارز من العصور الوسطى ـ ابن سينا(٤١) ولكن من الممكن انهما اقتبسا هذه العقيدة من الفلسفة الهندية التي تتحدث عن تناسخ النفس الدائم الى ان تتطهر تماما(٤٢) . اما الاعتماد على تأثير ابن سينا فيمكن اعادته الى نص جبران تحت عنوان «ابن سينا وقصيدته» الذي عبر جبران فيه عن اعجابه بالفيلسوف المشهور(٤٣) .

غير انه بالنسبة لتقمص الارواح تبرز قضية لايوجد حلها في فلسفة التصوف لدى نعيمه وجبران . فهما لا يتكلمان عن تقمص

(٣٩) C. Veljacic , op. cit ., p. 364 .

(٤٠) جورج صيدح الذي كان يعايش ادباء المهجر يكتب ان ايليا ابا ماضي وحده لم يعتقد بتقمص الارواح / « أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الامريكية » ، ص ١٥٧ . استدرج نعيمه هذا الموضوع فنيا في قصته البارزة « اللقاء » ومن قصص جبران نختار « رماد الاجيال والنار الخالدة » و « الشاعر البعلبكي » . قارن : المصدر السابق ، ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(٤١) نادرة السراج ، « شعراء الرابطة القلمية » ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٢٥ .

(٤٢) Sherefan , op. cit ., pp. 398 - 400

(٤٣) يكتب جبران عن هذه القصيدة لابن سينا انها افضل « ما نظمه الاقدمون » وانها « ادنى الى معتقدي واقرب الى ميولي النفسية » . « المجموعة الكاملة » ، ص ٥٤٢ ـ ٥٤٥ .

الارواح بمعنى ان الروح تتقمص من جسد الى جسد حتى تتطهر تماما ، بل ان تقمص الارواح لديهما لانهائي بمعنى التناسخ (transmigration) الابدي ومعنى ذلك ان الروح الفردية سرمدية . والان يطرح السؤال : بأية طريقة يمكن التصالح الفلسفي بين سرمدية الروح الفردية وبين العقيدة في الاتحاد المطلق بالله نظرا لان الروح بتقمصها الدائم من جسد الى جسد « مشغولة » فعلا بالثنوية (dualism) « جسد – روح » ومن حيث ذلك فان تناسخها السرمدي في الدنيا لايسمح لها بالتحرر النهائي عن الجسدية .

ومع اننا قد قلنا ان تقمص الارواح من الموضوعات المركزية لنعيمه وجبران تجدر الملاحظة بانهما لم يحاولا ان يبينا تقمص الارواح بتتابع في نظام تفكيرهما . لقد اعجب تقمص الارواح كيانهما الشعري اكثر لانهما تحدثا عنه في نصوصهما الفلسفية بشكل عابر او خارج النظام الفلسفي . بعبارة اخرى ، ان تقمص الارواح جزء من عقيدتهما ولكن لم يبذلا جهدا على الاطلاق ان يجعلا منه عنصرا بنائيا للنظرية الابداعية . كان تقمص الارواح اقرب بكثير الى روحيهما الشعريتين الفضوليتين . ومن المهم ان الصوفيين ايضا لم يهتموا بسرمدية الروح بشكل عميق (٤٤) .

من الصعب ان نعتقد ان التطابقات الكبيرة بين فهم نعيمه وجبران وبين الصوفيين صدفية وانها يمكن حصرها بتشابهات فقط . فقد استفادا دون شك من ينابيع الثقافة العربية والعربية الاسلامية لانهما كانا يظهران افتخارهما بالانتساب الى تلك الثقافة ولانهما كانا يعتقدان بأن مستقبلهما يمكن بناءه فقط على اساس تراثهما الغني بالاتصالات بثقافات اخرى . وعندئذ ليست هناك اهمية خاصة للامكانية ان طريقهما الى ينابيع التصوف الاسلامي كان غير مباشر ايضا : من متسامية امرسن عبر الوهية الكون لدى الافلاطونيين الجدد والبوذية . وعلى

(٤٤) C. Veljacic , op. cit ., p. 365 .

كل حال ، فان مذاهب التفكير هذه كلها تحدث تشابكا خاصا : كان امرسن يستلهم ، بالمناسبة ، من الاديان الشرقية ، ونشأ التصوف نتيجة لاتصالات الاسلام بالاديان الهندية والفارسية القديمة وكان نعيمه وجبران يتصلان بكلها وطبعا بالمسيحية ايضا وذلك بروح شاعرية اكثر مما كانا يتصلان بها بعقلهما التأملي الفلسفي .

لقد انتج كل ذلك تناقضات عديدة في تفكيرهما ولذلك لا يمكن ان نسمي تفكيرهما نظاما بالمعنى الفلسفي للنظام بل يمكن تعريفه على انه نوع من التفكير التماسكي (Syncretism) الذي لا يحاول بذاته اجتياز التناقضات . وبعبارة ادق ان نوع التفكير ذلك عبارة عن اتجاه ديني اكثر مما هو فلسفة فلذلك لا يمكن ان نعيده تماما الى اية فلسفة او الى اي دين . حقا ، لقد اثر تفكير نعيمه وجبران تأثيرا قويا على ادباء المهجر ولكن الحقيقة ايضا ان ذلك التفكير اثر عليهم فقط وفي الاغلب حينما كانوا في الاتصالات الشخصية فقط . ومعنى ذلك ان في استطاعتنا ان نعود هنا الى تأكيدنا الاول بان طبيعتهما الشخصية كانت خصيصتهما المميزة وليس التفكير نفسه . وهكذا يمكن ان نضعهما في تاريخ فلسفة ما فقط بمعنى انهما كانا يؤثران على ادباء المهجر وان الكتاب النبوي لجبران the Prophet (٤٥) كان له صدى كبير في العالم (٤٦) .

(٤٥) لم نستطع الحصول على اصل هذا الاثر لجبران ولذلك استعملنا ترجمته الى العربية بعنوان « النبي » . وجدير بالذكر ان هذا الاثر ترجمه نعيمه كافضل الخبراء في ابداع جبران وصديقه . في هذا البحث استعملنا ترجمة نعيمه لهذا الاثر . وفي الوقت الاخير ظهرت ترجمته الى الصربوكرواتية من الانكليزية بعنوان :
Pro rok , zagreb , 1977 .
ترجمة وتعليق : Marko Grcic

(٤٦) على ما نعرف ، ادخل E. S. Hayman وحده جبران الى تاريخ الفلسفة الامريكية ، في :
Dictionari of American philosophy , philosophical library , 1973.

وجدير بالاعتراف ان النصوص العديدة لنعيمه التي يفصح فيها عن تفكيراته لا يمكن قراءتها الا ببذل جهد خاص ليس لان فهمها صعب بل بسبب عدم الترابط في نظامها . فتلك النصوص التي اراد منها صاحبها ان تكون رسائل فلسفية لا يصبغها الا بشكل نادر الطرح الفلسفي المنطقي الهادىء ، بل تتميز اكثر بالعاطفية والهام الفنان ، بالتعميم والتجنب عن الاستنتاجات بشكل متتابع . ان استدراج نفس الموضوعات في اماكن عديدة يختص باقتباس الكاتب ذاته .

يطرح علينا السؤال هنا : في اية علاقة يقع الادب بكل ما قد ذكرناه عن النظام التجريدي لدى نعيمه ؟ ومع اننا سنتحدث عن ذلك بمناسبة اخرى بصورة مفصلة لا يمكن تجنب الجواب على هذا السؤال ولو بشكل مختصر .

يقول نعيمه : « واذن فمهمة الادب هي التعبير عن الانسان وكل حاجاته وحالاته تعبيرا جميلا ، صادقا من شانه ان يساعد الانسان على تفهم نفسه وتفهم الغاية من وجوده ، وان يمهد له الطريق الى غايته . واذن فللادب رسالة سامية »(٤٧) .

كان امرسن يفكر عن الشاعر مثل نعيمه ، اي انه رسول رسالته السامية ان يتوسط بين الحق والطبيعة وبين عامة الناس . وهو كان يعتقد بصورة راسخة ان « الحق والفن سيجتذبان الناس كلهم » (٤٨) .

. لقد استدرج نعيمه هذا الفهم في الادب في اغلب مؤلفاته الثلاثين تقريبا . واذن ، حسب رايه ، نحن نعود الى فهم الفن القديم جدا وهو ان الفن وحي وان الفنان كائن غير عادي غايته ان يعلن عن الله في كل ما

---

(٤٧) نعيمه ، « دروب » ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٤٥ .

(٤٩) Emerson , « The Poet » , in : op. cit ., p. 320 .

يوجد وذلك بحديثه الجميل . ان الاشـياء كلها التي يمكن الوصول اليها بالحواس الخمس تدل حسب مذهب الوهيـة الكون الى وجود مضمونها الروحاني الذي لا يدرك بالتمييز التحليلي العلمي ، بل فقط بالفن الذي يقـود بواسـطة الخيال الى التركيب (Synthesis) والى المعرفة النهائية (٥٠) . غير ان نعيمه تجاوز بعد ذلك الوهية الفـن مثلما تجاوز الوهية الكون قبل ذلك واقترب من التصوف . وفي الحقيقة لا تقتصر وظيفـة الفن على تكريم اجـزاء الطبيعة الجميلة ولو كانت روحانية بل يهتدي الانسان عبرها دائما وبفضل الدهشة والخيال الى معرفة الاله . وعلى سبيل المثال ان قصيدة نعيمه « اوراق الخريف »(٥١) ليست شعورا شاعريا عاديا باوراق الخريف التي تهبط على الارض في هدوء وبحفيف هادىء وهي جميلة وصفراء ، وهي لا تثير في الشاعـر القلق او الحزن ولا الشعور بالفناء كما يفعل عادة منظـر هبوط اوراق الخريف . ان المنظر الذي يصوره لنا نعيمه في هذه القصيدة يعبر عن عدم اعتقاده بوجود الحياة والموت ، اي يعبر عن ايمانه الراسـخ بأن الحياة والموت واحد ، بان الموت فقط مرحلة في سرمدية الانسان ، في تجدده الدائم . اذن ، هذه القصيدة صوفية في جوهرها وليست قصيدة الوهية الكون في معناها الحقيقي . يقول نعيمه في نفس المعنى ولكن في مكان آخر : « وهو الفن الذي اذا ما تحسـستموه احسـستم كانكـم تنعتقون من الحس . واذا ما حاولتم تحديده قادكم الى حيث لا حدود . فرايتموكم شاملين مثلما الله شامل » (٥٢) . لقد نظم شعراء المهجر

---

(٥٠) في تطويره لفكرة قداسة الاديب يستعمل نعيمه صورة ما تشبه الانسانية بهرم : في حقيقة الامر ، لا فرق بين الناس مثلما لا فرق بين الاحجار المبنية في الهرم الا بمعنى تلك التي تقع تحت وفوق . الناس على قمة الهرم الذين هم اقل عـددا بالنسبة لهؤلاء في أساس « الهرم » ، يختلفون عنهم لانهم اقرب من الله ولان لديهم الخيال والايمان اقوى . هؤلاء الناس على قمة « الهرم » هم الادباء . نعيمه ، « البيادر » ، بيروت ، د. ت. ، ص ٧٤ .

(٥١) في مجموعة القصائد « همس الجفون » ، بيروت ، د.ت. ، ط ٥ ص ٤٧ — ٥٠.

(٥٢) نعيمه ، « البيادر » ، ص ٧٤ — ٧٥ .

الاخرون قصائد صوفية كثيرا . ومن المعروفة منها ، مثلا ، القصيدة الصوفية لعريضة « على طريق ارم » التي يكتب الشاعر فيها عن رغبته في الاتحاد بالله . وفي الحقيقة ، فان ارم الاسطورية (٥٣) رمز يستعمله ادباء المهجر احيانا في شعرهم ونثرهم عندما يريدون التعبير عن ميولهم الى المثالية ، الى الالهية . وايضا فان القصيدة « نار القرى » لابي ماضي قصيدة صوفية دون شك . يلح الشاعر فيها على الرغبة في الفناء في الله الذي قد قدمه الشاعر « نار القرى » (٥٤) .

لقد قدمنا امثالا فقط من الشعر الصوفي المهجري وجدير بالتشديد على ان هناك كثيرا من القصائد الصوفية في ادب المهجر بالرغم من ان الكثير منها لا يمكن تفسيرها على هذا النمط للنظرة الاولى . نقصد القول ان عناصر الطبيعة وظواهرها (مثل البحر والنور وغيرهما) لا يستعملها هؤلاء الشعراء للوصف الشعري فقط بل يستعملونها في اغلب الاحيان لكي يرتقوا عبرها وبفضلها الى الالهية .

هؤلاء الشعراء — ونعيمه اولهم — يعتقدون بان الادباء قادرون بشكل خاص على الادراك الصوفي ، نظرا لان لديهم الخيال الراقي خاصة والعاطفية وايضا لديهم العلاقة الخاصة بالطبيعة وعليهم ان يعبروا عن ذلك الادراك في ادبهم . ولاجل ذلك ، في رايهم ، ان غاية الادب غاية الرسالة . وبما ان الادب على هذه الصورة ، فغايته تربية الخير في الانسان ، ولا بد له من الاصلاح والتثقيف . وهكذا ياخذ الادب مكانه في مجال الاخلاق وبطبيعة الحال لا بد من الكلام التفصيلي عن ذلك في مكان آخر .

---

(٥٣) في سورة القرآن « الفجر » تذكر ارم / الاية السابعة / . هي مدينة ذهبية يروى انها كانت في مكان محجوب في جنوب جزيرة العرب لم يستطع الانسان ان ينظر اليها لسبب ضوئها . لقد حطمها الله . هدف الوصول الى ارم يرمز الوصول الى المثالية ، الى القيم العليا . للتوسع في ذلك الرمز الصوفي انظر في : نادرة السراج ، « نسيب عريضة — الشاعر ، الكاتب ، الصحفي » ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١١٢ — ٩٠ .

(٥٤) قارن : Badawi . OP . Cit ., PP. 190 - 191

ميخائيل نعيمة
شاعرًا
بين المنهج النقدي والتطبيق الابداعي

ممدوح السكاف

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ولادة ثلاث عبقريات فذة ، كان لها أثر خطير في بعث حركتنا الفكرية واشاعة الحرارة في لغتنا وتلوين شعرنا بألوان لم يعرفها من قبل وتفتيح آفاقنا الشعورية والعاطفية على عالم جديد ... هذه العبقريات الفذة تمثلت في شخصيات ، ميخائيل نعيمة ، وجبران خليل جبران وامين الريحاني .

ولقد كتبت دراسات مطولة في اعمال هؤلاء الادباء وتحليل آثارهم وتبيان دورهم في نهضتنا الادبية ورصد مذاهبهم وآرائهم في اللغة والشعر والنقد والحياة . وقد أثار كل منهم حوله بما اذاع من افكار وطرائق مستحدثة في الفن عاصفة قوية تصدى لاخمادها المحافظون التقليديون ممن يسيرون على سنن الآباء والأجداد ، وممن يقدسون موروثنا العربي تقديسا أشبه بالعبادة ، ولكن العاصفة كانت اقوى من الموت واقدر على المجابهة والتحدي فلم تستطع صيحات الغضب أن تخنق اندفاعها بل مكنتها من السير الحثيث ووطنتها على التصميم المنتج .

وسنحاول في هذا البحث ان ندرس ميخائيل نعيمة شاعرا ، ومعولنا الاول ديوانه الشعري اليتيم « همس الجفون » وقبل ان نبدأ هذه المحاولة لا بد لنا من استقصاء شخصية ميخائيل نعيمة الثقافية والمناهل التي أثرت في تفكيره . ومن قراءتنا لترجمة حياته في كتابه « النور والديجور » وكتابه الموسوعة « سبعون » ومن خلال المقابلات الادبية التي اجريت معه ، نرى ان الحياة بامتداداتها الواسعة الرحيبة وبما فيها من تناغم وتكامل وانسياب هي العامل الاول في تكوين شخصيته الثقافية ومده بالفكر العميق . أما العامل الثاني في تكوين هذه الشخصية فهو اتقانه اللغة الروسية وقراءته لآدابها عندما كان يدرس في اوكرانيا بروسيا ، واتقانه للغة الانكليزية وقراءته لآدابها ايضا عندما كان يدرس الحقوق في جامعة واشنطن بامريكا . ولا شك في ان اطلاعه على آداب هاتين اللغتين وخاصة الانكليزية قد اضاف الى ذخيرته الثقافية التي استمدها من طبيعة الحياة ينبوع ابناء الحياة ونبعهم في اصقاع الدنيا المتباعدة ، اما العامل الثالث في تكوين شخصية نعيمة الثقافية فهو اطلاعه المحدود في شبابه على كتب الادب القديمة العربية وما فيها من شعر ونثر وخطب ورسائل ومقامات : ومرد هذا الزهد في التعمق بآدابنا الكلاسيكية ودراستها كون ميخائيل نعيمة قد ثار على نمطية هذه الآداب وشكلها وجوهرها لانه وجد فيها انغلاقا فكريا وروحيا ومراوحة واستعادة في الصياغة الفنية واجترارا للاخبار والمعاني ، وكونه ايضا قد عاش في يفاعته وجزءا طويلا من شبابه في غربة متنقلة مما ابعده عن الاطلاع الدائب على أدبنا القديم لعدم توافر مصادره ومظانه بين يديه بسهولة ، لذا فالدارس لآثار نعيمة يلحظ ضمور ثقافته في الادب العربي القديم وقلة اتكائه على سالفنا اللغوي .

هذه هي اهم العوامل التي كونت شخصية نعيمة الثقافية ، واذا أضفنا ما للغربة عن ربوع الوطن الام من آثار جليلة وتجارب مخصبة . وجدنا كم هي غنية هذه الشخصية ومنوعة . وكم هي ذات ينابيع دافقة وظلال وارفة وكم هي مشبعة بالعقل والروح والنماء .

ويقتضينا منهج الدراسة المقارنة ان يكون تخطيط بحثنا كما يلي :

آ ـ عرض وتحليل لشاعرية نعيمة وشعره .

ب ـ عرض وتحليل لشاعرية نعيمة وشعره بين منهجه النقدي وتطبيقه الشعري .

ج ـ خاتمة وحكم .

* * *

يقف مؤلف « الغربال » من شعرنا وشعرائنا موقفا هجوميا حادا ، فهو يهاجم الشعراء الجاهليين بعنف ويقول ان غثهم اكثر من ثمينهم ، وليس في اشعارهم ما يرفعهم الى مصاف الخالدين ، وهو يهاجم الشعراء المحدثين امثال شوقي وحافظ ومطران ويصفهم بانهم شعراء مناسبات يفتشون المعاجم لتذليل القوافي الشاردة ثم ينتقل ليعرف الشعر تعريفا شاعريا اسلوبيا منفلوطيا بعيدا عن تحكم العقل وعمق النظرة كأن يقول : انه ترنيمة البلبل ونوح الورق .. الخ . ثم يقول في التعريف ، وبعد أن يرفض التعريفات السابقة للشعر ـ « وبالاجمال فالشعر هو الحياة باكية وضاحكة وناطقة وصامتة ومولولة ومهللة وشاكية ومسبحة ومقبلة ومدبرة » وما اظن ان في هذا التعريف كبير غناء لانه تعريف للحياة اكثر مما هو تعريف للشعر جاء عن طريق اصطناع الطباقات المتوالية التي يستدعي بعضها بعضها الآخر . واذا جاز لنا أن نحكم على أمر فاننا نعتقد ان ميخائيل نعيمة اراد بهذا التعريف الطويل الحافل بالمستضادات ان يقول لنا ان الشعر هو الحياة وبهذا خرج عن جوهر الشعر الى تأثيراته وانتقل من حقيقة الشعر الى توليداته .

ويعتقد نعيمة ان الشعر ليس صنعة ولا تزيينا ولا زركشة ولا رنينا موسيقيا ، انما هو معنى الوجود والحياة وعواطف الانسان ضمن

الجماعة ، لذا طالب ان ترفع كفة المعنى على كفة اللفظ او كفة الروح على كفة الجسم وان يصور الشاعر في شعره الخوالج النفسية من رجاء ويأس وفوز وايمان وشك ولذة وألم وغير ذلك من انفعالات وتأثيرات . وهذا معناه أن نعيمة يجعل للفكرة والعاطفة والخيال المقام الاول في الشعر واللغة والصياغة المقام الثاني ، ولعل الذي دفعه الى هذا الاعتقاد ضعف لغة اغلبية ادباء المهجر وضمور العناصر الثلاثة «الفكرة والعاطفة والخيال» في شعر شعراء تلك الحقبة من الزمن في الاقطار العربية .

وقد يكون نعيمة قبس هذا التفكير في الشعر من الآداب الاوربية والمنزع الرومانسي بشكل خاص الا انه يعتقد ان للشاعر دورين . دورا تجاه نفسه ، ودورا تجاه مجتمعه ووطنه وامته ، اي ان للشاعر عالمين . عالمه الداخلي وله يغني ما توحيه « الذات » من انفعالات عاطفية وعالمه الخارجي وله يغني ما توحيه « الجماعة » من انفعالات وطنية وقومية واجتماعية(١) .

والآن قد يهم القارىء ان يعرف كيف ينظر نعيمة الى « الغربال » وقد مضى على كتابة بعض فصوله اكثر من نصف قرن ، يقول نعيمة في كتابه « سبعون » : « في الكتاب نظريات وآراء وتوجيهات لو سئلت فيها اليوم لتبنيتها دونما تردد ، فانا لا ازال اقول ان « محور الادب » هو الانسان ، فعلى قدر ما يتغلغل الادب في حياة الانسان ، وفي التفتيش عن اهدافها ، يكفل لنفسه البقاء وذلك يعني أن الادب – شعر ونثر – أن يتيم بقدر ما فيه من قوى انسانية ظاهرة او باطنية لا بقدر ما فيه من الحذلقة والبراعة في صقل الكلمات والعبارات »(٢) .

لميخائيل نعيمة ديوان شعري واحد هو « همس الجفون »(٣) ومعظم قصائده نظمت في المهجر بأميركا بين عامي ١٩١٧ – ١٩٣٠ ، ويبدو أن فلسفته في (وحدة الوجود) قد تكونت اول ما تكونت في قصائد هذا الديوان الذي اذا عدنا اليه الفيناه كاسمه همسا بكل ما في نفسه وبكل

احاسيسه : همس خفيض ، ليس فيه صياح ولا عويل ، تحس ذلك في لفظه وموسيقاه فألفاظه ناعمة هفهافة وموسيقاه رقيقة النبرات لطيفة الايقاع ، والقصيدة من قصائده كثيرا ما تنتقل من لحن الى آخر ومن قافية الى ثانية . ولكن في هدوء وتماوج ، فليس في كيان شعر نعيمة عنف لأن نفسه ترفض العنف ، وهو في ذلك يفترق عن ايليا ابي ماضي الشاعر الثائر في كثير من شعره ، كما يفترق عن جبران المتمرد زعيم الرابطة القلمية في شعره ونثره . ان نفس نعيمة هادئة وكل ما يصدر عنها هادىء مثلها وليس فيه حدة ولا غضب اذ يمضي في الحياة راضيا بكل ما قسمته له المقادير والايام :

ذمتك الايامُ لا ينفعك	فهي لا أذنَ لهـا تسمعكْ
لا ولا عـينٌ ترى عقربا	في دياجير الأسى تلسعكْ
لا ولا قلبٌ يرقّ وإنْ	جفَّ من طول البكاء مدمعكْ

لقد عاش الشاعر قصائد « همس الجفون » في مدن النار والدخان : بين مصانع الفحم والحديد وعجلات الآلات وهدير المعامل ، ورأى تكالب الناس على الاصفر الرنان ، وخبر قسوة الحياة المادية وجهلتها حين تهمل كل المقدسات الروحية فأثر فيه ذلك كله تأثيرا عكسيا ، دفعه الى تقديس الروح واحتقار المادة ، وجعله يتعلق بالحياة الصوفية قابسا ملامحها الاولية ــ هو وجبران ــ من متصوفي الاسلام كالحلاج ومحيي الدين بن عربي وابن سينا .

احب نعيمة الطبيعة حبا خلاقا واندمج فيها اندماجا عاشقا ، لما فيها من جمال وجلال وروعة . احب الجبال لان في ارتفاعها ارتفاعا للانسان وسموا للروح ومعرفة لله ، واحب البحر لانه يعطي المخلوق صورة واسعة عن المطلق واللانهاية والخيال الفسيح ، واحب الارض لانها تهب الكائنات الحية بيد كريمة طاهرة من كل اثم ، واحب الانهار في جمودها وانسيابها ، في مماتها وحياتها ، وغنى جميع هذه المظاهر الطبيعية في

نثره وشعره ، وهكذا فان نعيمة يتأمل الكون الطبيعي فيجد في مشاهده الملونة المختلفة دروسا من الفلسفة والتعقل تدعو الى التفكير والتدقيق وادامة النظر في اسرار الحياة . وهو يشترك في هذه الميزة ـ حب الطبيعة واللجوء الى جمالها لتخفيف الالام وقهر الصعوبات ـ مع بقية شعراء الرابطة الاقليمية ، ونظرة واحدة على عناوين قصائده في الديوان من مثل « اوراق الخريف » « ترنيمة الرياح » « نهر يغني » « يا بحر » « النهر المتجمد » تثبت ذلك . ففي القصيدة الاخيرة تظهر الاصباغ الرومانسية التي لونت شعر نعيمة منذ تفتحات الشباب ، وفيها يبدو حنانه على الطبيعة ، فقد تحدث الى النهر طالبا اليه ان يبوح بسر انقطاع خريره وانثنائه عن متابعة المسير ، وفي هذه النجوى النفسية الصادقة المتجهة نحو الطبيعة يقترب نعيمة من المدرسة الرومانسية ايما اقتراب ، انه يجسد النهر او يشخصه ثم يطلب اليه ان يثور على الجمود بعد ان راى ان قلبه متجمد ايضا(١) :

يا نهرُ هل نضبتْ مياهُكَ فانقطعتَ عن الخريرْ
أم قد هرمتَ وخارَ عزمُكَ فانثنيتَ عن المسيرْ
ما هذه الأكفانُ ؟.. أم هذي قيودٌ من جليدْ
قد كبلتكَ وذللتكَ بها يدُ البردِ الشديدْ

واحب نعيمة الخير وكره الشر ، ونادى بكره الشر لا بكره الشرير ، وراى ان الانسان يختزن في اعماقه صورة للملاك وصورة للشيطان وان الصراع بين هاتين الصورتين ابدي سرمدي ، لانه يعبر عن الصراع بين قوى متناقضة متعادية في الحياة هي التي تجسد انسانية الانسان في قوته وضعفه وفي سموه وانحطاطه :

١ ـ دخلَ الشيطانُ قلبي فرأى فيه ملاكْ
٢ ـ وبلمحِ الطرفِ ما بينهما اشتدَّ العراكْ

٣ ـ ذا يقول البيتُ بيتي ، فيعيد القول ذاكْ
٤ ـ وانا اشهدُ ما يجرى ولا ابدي حراكْ
٥ ـ سائلا ربي : أفي الأكوان من ربٍ سواكْ
٦ ـ جبلتْ قلبي من البدءِ يداه ويداكْ
٧ ـ لستُ أدري ارجيمٌ في فؤادي ام ملاكْ

فالشر والخير هنا ليسا في الدنيا حوله وانما هما في قلبه وهو موزع بينها ، انهما نظام وجوده ، كما انهما نظام الوجود كله . وتارة يستسلم للشر وشيطانه ، وتارة يستسلم للخير وملاكه بل انهما يعتركان في داخله، يقوده هذا مرة وذاك مرة . وهو ماض في طريقه .. طريق الحياة التي قامت على حافتيه اعلامهما ، وانتصبت صورهما .

وهو بهذه المعاني انما يلتقي التقاء ملفتا للنظر مع ايليا ابي ماضي في طبيعة الالفاظ والافكار والتساؤلات التي يشترك فيها الشاعران . يقول ابو ماضي :

١ ـ انني اشهد في نفسي صراعا وعراكا
٢ ـ وارى ذاتي شيطانا واحيانا ملاكا
٣ ـ هل انا شخصان يابى ذاك مع هذا اشتراكا
٤ ـ ام تراني واهما فيما اراه ....

لست ادري .

واعتقاد نعيمة بوحدة الوجود وبان الذات الالهية والكون والمخلوق والطبيعة تؤلف كلا جميلا هو الله ، وعنه يصدر كل شيء واليه يعود كل شيء دفعه لعدم الخوف من الموت واستقباله بمنطقية لان الروح ، روح الانسان انما هي في اعتقاده جزء من روح الله ، ولان هذه الروح الميتة سترجع لتجد في جسدها داخل الحفرة الرطبة نور الحياة مجددا :

وعندمـا المـوت يدنو والـلحـد يفغـر فاه
اغمض جفونك تبصر في اللحد مهـد الحياة

ويظهر هذا الاعتقاد بوحدة الوجود واضحا في قصيدته « من انت يا نفسي » فنراه يتساءل في مقاطعها تساؤل الفيلسوف الشاعر او الشاعر الفيلسوف عن مصدر النفس الانسانية . هل انت من البحر ومع أمواجه. ام انحدرت مع الرعد في قصفه . او ولدت مع الريح او انبثقت من الفجر وضيائه الازرق او هبطت مع الشمس واشعتها الذهبية . او غردت مع اللحن في انسجامه ..؟.. ثم بعد حيرة وشك وكثير من الاستفهامات يقـول :

انت ريح ونسيم ، انت موج ، انت بحر
انت برق ، انت رعد ، انت ليل ، انت فجر
انت فيض من إله . . .

ويرى نعيمة ان أكبر قوة واعظمها في الانسان هي قوة الخيال لا قوة العقل . فالعقل قاصر عن ادراك الذات الالهية لانه مقيد بالحواس اما الخيال فقادر على الانطلاق والرفرفة في الابعاد والآماد اللانهائية لانه ليس مغلولا بحل وهكذا فالخيال والعقل دفعا نعيمة الى التامل المجرد في حقائق الوجود وكنه العالم وفي النفس الانسانية وفي أسرار الحياة والموت فكان ان اعتقد بعد تلعله الرحب السبق الشامل ان الالم هو الذى يوجد القلوب ويصقل احاسيسها ويقيم بينها الروابط المتينةواسباب التعاطف والمحبة وان كمال الانسان لا يكون الا بالسلام وان رخاء العالم لا يتحقق الا بالصفح وان الحرب عدو لكل القوى البشرية وان الاخوة الانسانية يجب ان تعلو المكاسب المادية .

* * *

هذه لمحة عابرة تطرقنا فيها الى نتف من طريقة تفكير نعيمة وطبيعة عواطفه في ديوانه « همس الجفون » ولنا ملاحظات تتعلق بروح الشعر ومادته لديه **وأولها** ان القصيدة عند نعيمة تعبير نفسي متكامل : أو عمل ذاتي تام تتجلى فيها الوحدة الفنية وتعالج في مجموعها موضوعا واحدا ، فالشاعر « يسترسل » مع فكرته المطروحة المعالجة استرسالا ينسيه احيانا انه يكتب قصيدة . ويبني كثيرا من قصائده على هذا الاسترسال ، بل لعله يعمد الى الموضوعات التي تبيح له مثل هذا الانطلاق المسترسل الذي لا يقف بصاحبه الا حين يتعب أو يمل . لا حين يجد الشبع الحقيقي [٥] . وهو يصوغ تجربته النفسية في ابيات متعاقبة يجمعها الالتحام والاتساق . ولعله استمد هذا كله من نموذج القصيدة الغنائية عند الغربيين اذ تصل بين الابيات فيها وحدة عضوية متآزرة . ولا عجب في ذلك فقد غنى نعيمة كما غنى الرومانسيون آلام النفس البشرية وطفح وجدانه بأحاسيسها ومشاعرها[٦] .

والوحدة العضوية كما هو معروف تعني وحدة الموضوع ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والافكار ترتيبا به تتقدم القصيدة شيئا فشيئا حتى تنتهي الى خاتمة يستلزمها ترتيب الافكار والصور على ان تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية لكل جزء وظيفة فيها ويؤدي بعضها الى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر .

وتستلزم هذه الوحدة ان يفكر الشاعر تفكيرا طويلا في منهج قصيدته وفي الاثر الذي يريد أن يحدثه في سامعيه وفي الاجزاء التي تندرج في احداث هذا الاثر بحيث تتمشى مع بنية القصيدة بوصفها وحدة حية ثم في الافكار والصور التي يشتمل عليها كل جزء بحيث تتحرك به القصيدة الى الامام لإحداث الاثر المقصود منها على طريق التتابع المنطقي وتسلسل الاحداث أو الافكار ووحدة الطابع والوقوف على المنهج على هذا النحو

قبل البدء في النظم يساعد على ابتكار الافكار الجزئية والصور التي تساعد على توكيد الاثر المراد .

هذه الوحدة العضوية كما بينا أصولها تتجلى في قصيدة ميخائيل نعيمة « اخي » وفيها يصور حال الشرق العربي بعد الحرب العالمية الاولى وكيف ساقه الغرب الى الحرب سوق القطيع وتركه غارما غير غانم . ضحاياه وقعوا نيغنم الاجنبي واحياؤه يعانون نتاج بؤس الحرب . لا يصغي لشكواهم سيدهم . فحياتهم موت واولى بهم ظلام القبور من حياة لا يتذوقون فيها طعم الحبور . وها نحن نسوق هذه المقطوعات من القصيدة لنرى كيف تقدم الشاعر في هذا التصوير العضوي الحي لتجربته حتى انتهى الى خاتمة طبيعية لتصويره :

اخي ..... ان عاد بعد الحرب جندي لاوطانه
والقى جسمه المنهوك في احضان خلانه
فلا تطلب اذا ماعدت للاوطان خلانا
لان الجوع لم يترك لنا صحب نناجيهم
سوى اشباح موتانا

اخي.... ان ضج بعد الحرب غربي باعماله
وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش ابطاله
فلا تهزج لمن سادوا ولاتشمت بمن دانا
بل اركع صامتا مثلي بقلب خاشع دام
لنبكي حظ موتانا

اخي قد تم مالو لم نشاه نحن ماتما
وقد عم البلاء ولو أردنا نحن ماعما
فلا تندب فاذن الغير لاتصغي لشكوانا
بل اتبعني لنحفر خندقا بالرفش والمعول

نواري فيه موتـانـا

اخي .... من نحن لاوطن ولا اهل ولا جار
اذا نمنا ، اذا قمنا ، ردانا الخزي والعار
لقد خمت بنا الدنيا كما خمت بموتـانا
فهات الرفش واتبعني لنحفر خندقا آخر .
نـواري فيه احيانـا

ففي المقطوعة الاولى معارضة للجرب . في سلطانه وقوتـه وبطولته بحال الشرقيين التابعين . ثم يتدرج في تصوير هـذه الحـال البائسة والارادة السلبية حتي ينتهي الى تصوير الاحياء في لباس الخزي والعار واشرف منه حفر اللحد . ونهـايـة القصيـدة نتيجة طبيعية لتسلسل الصور التي ساقها الشاعر . وفيها تقدمت القصيدة نحو النهاية في حركة نامية . والقصيدة تصور تجربة نفسية اجتماعية معا . وهي على ما فيها من اسس . اهابة بالعزائم واستنهاض للهمم وتحليل للنسمة(٧) .

بعد ان انتهينا من عرض الملاحظة الاولى ننتقل الى الملاحظة **الثانية** وهي فقدان نزعة الحنين الى الوطن ومناجاته والشوق اليـه في هذه المجموعـة . مع أن هذه النزعـة تكاد تكون السمة الاشد وضوحـا في شعر الشعراء المهجريين الجنوبيين والشماليين وهي حادة عنيفـة عند الياس فرحات والشاعر القروي وايليا ابي ماضي وجورج صيدح ونسيب عريضة وغيرهم . فبل نستطيع ان نقول ان تيار الحياة الجديد الاخاذ في امريكا قد حجب عن الشاعر وجه وطنه الام وانساه مـلاعـب طفولته وذكريات صباه ؟ .. قد يصح لنا ان نزعم مثل هذا الزعم اذا علمنا ان نعيمة يكفر بالحدود والبنود والنقود مطبقا عقيدتـه في وحدة الوجـود تطبيقا فضفاضا لانـه يرى « ان الوطن ليس اكثر من عادة » ويسخر من الذين « يذرفون الدمع لفراق اوطانهم ويذوبون حنينا اليها »(٨) على حين يحاول الدكتور احسان عباس ومحمد يوسف نجم أن يلصقا بنعيمة نزعة

الحنين الشاقا بمعناها الوطني الواسع وذلك في قصيدته « صدى الاجراس » فيقولان « وقد مزج نعيمة الحنين الى الوطن والحنين الى الطفولة على طريقة الاسترجاع الحلمي والتوغل في الماضي كمشي النائم اثناء النوم » «٩» وهذا فيما نظن نوع من التعمل والتصنع في تفسير القصيدة وتحليلها سيكولوجيا وحشر للدراسات النفسية في غير موضعه ويقصد بهذا الالتصاق الاعتذار عن الشاعر لضمور معاني الحنين في شعره او بالاحرى انعدامها . ويقينا ان من يقرأ قصيدة « صدى الاجراس » لنعيمة لايقع فيها الا على بيت واحد يختلج فيه الحنين الى الوطن او الى الطفولة ؛ متمثلا بتذكر جبل صنين في لبنان هو قوله :

ذا صوت صباي يردده الوادي وشواهق صنيني

وتعلق نادرة جميل السراج على فقدان هذه النزعة في شعر نعيمة بقولها « وهكذا جاء شعره خاليا من صور الحنين او مواقف التأثر بطبيعة بلاده التي ظهرت صورها ومناظرها في أشعار زملائه من شعراء الرابطة» وتعلل ذلك قائلة « ان ميخائيل نعيمة لم يرحل الى امريكا مهاجرا من بلده في سبيل القوت والرزق كغيره من المهاجرين ولا فارا من مظاهر الظلم والتعسف كغيره من المسيحيين وانما هو قد سافر طلبا للعلم في الجامعات الاميركية وتزود منه بقسط وافر في السنين الاربع الاولى من قدومه الى العالم الجديد وكان طبيعيا أن ينشغل فسحة هذه المدة بالعلم عن تذكر الاهل والديار وان ينصرف الى الدراسة التي ابعدته عن الصبابة والتذكار » «١٠» .

والملاحظة الثالثة ان نزعة التشاؤم تغلب على معظم قصائد المجموعة وأن اللون الكامد فيها أظهر من اللون المشرق والانطواء على العواطف السلبية اكثر من الانفتاح على العواطف الايجابية . ونظرة واحدة على فهرست القصائد في « همس الجفون » تؤكد صحة هذا الرأي وقد يظن أن فلسفته الصوفية دفعته الى هذه النزعة التشاؤمية القاسية . وقد تكون مطالعات نعيمة للشعر الانكليزي واعجابه بالمدرسة الرومانسية لهما اثرهما دفعه الى السير على هذه

الطريقة وتلوين شعره بالنغمة الاسبانية الحزينة كما في قصيدته «التائه» التي يبدؤها بهذا المقطع :

اسير في طريقي	في مهمه سحيق
ووحدتي رفيقي	ووجهتي الفضا
مطيتي التراب	وخوذتي السحاب
ودرعي السراب	ورائدي الفضا

ومن الغريب ايضا — وهي الملاحظة **الرابعة** — ان نرى ضمور عواطف الحب وهزالها نحو المراة في « همس الجفون » فنحن لا نعثر على قصيدة واحدة فيها لوعة المحب وسهر العاشق ودنف الصب ، مع ان ميخائيل نعيمة يعتقد ان الرجل والمراة جناحا البشرية وان المراة قلب الانسانية النابض في قلب الله فهل كان تصوفه الفلسفي معوضا له عن حب المراة واستلهامها ؟ . . .

لاشك ان حياة نعيمة في شبابه لم تخل من امراة بل من عدة نساء(١١) وهو الذي قضى شطرا كبيرا من عمره موزعا ما بين روسيا القيصرية وامريكا الراسمالية . فهل يعقل ان يعيش في مثل هذه المجتمعات المتقدمة والمتحررة خلقيا في آن واحد دون ان يعرف امراة ويعاشرها ان لم نقل يحبها ؟ . . ان هذا الظن ليكاد يكون ضربا من المستحيل ، واذا كانت فلسفة النعيمي الاجتماعية والانسانية تدعو الى (المحبة) كي تتحقق سعادة البشرية ، واذا كان قد صرف جهده كتابة وخطبا في الدعوة الى الحب « الكبير » فلماذا لم يعبر في شعره الا في القلة النادرة جدا عن حبه الفردي « الصغير » ؟ . .

هل يمكن ان يكون هذا البعد عن وصف عواطف القلب نوعا من الرصانة الادبية والفكرية والاجتماعية اراد بها نعيمة ان يميز نفسه عن بقية اخوانه اعضاء الرابطة القلمية الذين صوروا حبهم وعذاباتهم

النفسية تصويرا رائعا وحفلت دواوينهم بأناشيد الفؤاد الولهان والعاطفة الجياشة ؟ .. وهل يتعارض الحب مع التصوف ؟ .. ام هـل يتنافى الحب مع وحدة الوجود ؟ . قطعا .. لا .. واكاد اقول ان نعيمة بالتعبير الحديث (نرجسي) كعمر بن ابي ربيعة مع حفظ الفارق بين الشاعرين عصرا ومنزلـة شعرية ومسارا فنيا . فالنسـاء يتهافتن عليه وهو يترفع عنهن . وفي جميع علاقاته الانثـوية يصور نفسه انه هـو المحبوب وليس المحب وهذا هو عشق الذات ، ففي حديثه عن حب (فاريا) لـه في (بولتافا ، بروسيا يقول في المرحلة الاولى من (سبعون) :

« يالله أي ورطة هي هذه الورطة .. ماذا اعمل بقلب لايرى لـه حياة الا في قلبي .. ؟ .. بل ماذا اصنع بقلبي ترتمي عليه القلوب وهـو لم يجد بعد قلبا يرتمي عليه ؟.. » وفي مكان آخر من (سبعون) يصف نزوع « فاريا » النسوائي نحوه فيقول . « واذا بفاريا تنهض عن كرسيها وبلمح الطرف تطوقني بذراعيها وتنكب على فمي بشفتيها مرددة عـن كل قبلة : خذها .. خذها تذكارا من فاريا » .

وفي قصيدة « آفاق القلب » محاولة للتغلب على الحب ودفعه عنه. وهي مثال فذ على خمود العواطف القلبية عند نعيمة وتوقد الافكار في عقله ، ثم الصراع المر بين النقيضين « العاطفـة » التي يمثلها القلب و « الفكرة » التي يمثلها العقل وها هو ذا يخاطب قلبه قائلا :

فكـم مـن مـرة هجمـا — عليـك الحب فانهـزمـا
وكم .. وكم قد جثا قلب — امامـك حـامـلا امـلا
فـراح مزودا المـا
فقلت لفكـرتي اتقـدي — وقلت لنفسـي اتـئـدي
فنـور الفكـر يهدينـا — اذا مـا قلبنـا جمـدا
ونورا فيـه لم نجـد

وترى ثريا ملحس في دراستها عن تصوف ميخائيل نعيمة ان الحب هو الخيط الاليف الذي لابداية له ولانهاية في حياته وانه هو الذي دفعه الى ايمانه بالانسان والله والى احساسه بالاشراق والفيض وتعتقد ان نعيمة « احب نفسه اولا ثم انطلق بعد الى الانسان ثم الى الله . فالخليقة فالوجود » ولانه ـ كما تقول ثريا ملحس ـ لم يجد امراة تشاركه الفهم الالهي ولم تستطع الوصول معه الى محجته « راح يستعيض عنها بالدعوة الى المخير الى المساواة التامة بين الرجل والمراة ، في الادراك والناسوتية ، وتارة اخرى بالنظر الى ان الزواج فشل انساني » (١٢) وتسترسل الاديبة ثريا ملحس في اسباغ صفات الصوفية وشطحاتها على نعيمة حتى يصل الحب عنده الى المحبة والمحبة الى الحب ويذوبا معا . وتنتهي في خاتمة بحثها لهذه النقطة من تصوف نعيمة الى ان « الحب هو المصعد الروحي الذي قربه الى الله وكسائر الصوفيين ابتدا بالدين والايمان به ثم بالحب الانساني والتغني به ، ثم انطلق منهما نحو الجمال الاسنى منشدا حبه له »(١٣) وثمة ملاحظة خامسة وهي ان اسلوب نعيمة الشعري يقرب كثيرا من اسلوبه النثري فلغته نقية صافية مترعة بالتعابير الانيقة والصور البارعة المنتقاة والواقع الموسيقي الاخاذ وليس في شعره ما يأسرنا من جزالة اللفظ ومتانته لان نعيمة يوجه همه في قصائده للفكرة والجانب العقلي والتاملي الباطني توجيها بالغا ، حتى يستنفد جزئياتها ويغور الى دقائقها فهو يهتم بالمضمون اكثر من اهتمامه بالشكل فالفكرة عنده هي الغاية الاساسية اما اللفظة فهي وسيلة لااكثر لنقل هذه الغاية ، ومن هنا نلحظ غزارة الافكار والمعاني وتزاحمها وتنوعها واسترسالها في قصائد المجموعة وخيرمثال على شعر الفكرة « المهموس » المتمادي في غوصه على الجزئيات عند نعيمة قصيدته « حبل التمني » وفيها يقول :

فصغيرا قد كنت اطلب لو كنت ... كبيرا ولي صفات الكبير

وكبيرا لو عدت طفلا صغيرا ... واستردت نفسي نعيم الصغير

وخليـا لو كنت بالحب مضنى ... وأسير الغـرام لو كنت حـرا
وفصيحـا لو كنت عيا سكوتا ... وسـكوتا لو كنت انطـق درا
ووحيـدا لو كان حولي اناس ... ومحاطا بالناس لو كنت وحدي
وغريبـا لو كنت ما بين أهلـي ... وقريبـا لو طال او دام بعـدي

ولا بد أن نلحظ ايضا أن وظيفة الخيال عند نسيمة وظيفة هادفـة، فهو يأتي بالصور ويعمل المخيلة من اجل ايضاح الفكرة التي يريد ايصالها الى القارىء فالخيال في اعتقـاده ليس ترفا فنيا بـل هـو اداة تلبس الافكار وتلبسـها الافكار وان كنا نرى مع الدكتورين عباس ونجم ان خيال نسيمة خيال قياسي منطقي « يكفيه ان يعلق بحالة ما حتى يقيس عليهـا الحالات الاخرى »(١٤) .

ونحن نظن ان هذه القياسية الخيالية ـ ان صح التعبير ـ هي من مخلفات التفكير النثري عند نسيمة لصاحب « النوبال » و « النـور والديجور » و « جبران خليل جبران » و « زاد المعاد » الخ .. الخ .. كان ناثرا قبل ان يكون شاعرا ، وكان فيلسوفا متصوفا قبل ان يكـون حالما مرفرفا ؛ وكان واقعيا عمليا ، قبل ان يكون مثاليا خياليا ، فلا بد والحالـة هذه ـ ان تترسب في شعره معظم طرائق التفكيـر المقالـي ومحاكماتها التي تقوم على سوق الحجج والبراهين والادلـة على صحـة الفكرة المطروحة المعالجـة :

يانهر ذا قلبي اراه كما اراك مكبلا
والفرق انك سوف تنشط من عقالك وهولا

وجدير بنا أن ننتبه الى كثرة الضرورات الشعريـة في المجموعـة ومثلها الصياغة والالفاظ غير الشعرية والامثلة على ذلك تـدركها الاذن الحساسة ويكشفها الذوق المدرب ، فما من قصيدة في (همس الجفون) الا وتحوي على قصر للمدود أو مد للقصور أو زحاف عروضي مستهجن او

لفظة نثرية جدا الا ان هذا العيب ينسحب على الشعر المهجري بأجمعه، وهو وليد الثقافة الغربية المحدودة لدى شعراء المهجر الذين كانوا يكتبون بالايامن ويرتزقون بالاياسر ولا تدور العربية على لسانهم الا قليلا والغربة عن وطنهم الام تكاد تنسيهم لغتهم الاصلية .

ونعيمة بدأ حياته الادبية ناقدا يدبج المقالات النقدية لمناسبات صدور كتب زملائه في المهجر والوطن او بدافع نقدي ذاتي لمناقشة وتحليل قضية ادبية من القضايا التي يشجر فيها عادة الخلاف بين النقاد كالمفاضلة بين المعنى والمبنى وادب المناسبات الاجتماعية او شعر السياسة الوطنية والوصف ، الى ماهنالك من مشكلات تستدعي التصادم في وجهات النظر ... نقول ان نعيمة بدأ ناقدا ثم انقلب الى شاعر ، والشعر الذي يأتي بعد نضال نقدي شاق وشبه نظرية متبلورة الخطوط او على اقل تقدير اتجاه محدد الفهم والتذوق ، محك ناعم وحساس لما يؤمن به صاحبه من آراء ومواقف واعتقادات نقدية ، وكثيرا ماعرفنا الشاعر يصبح ناقدا بعد ان يشعر بالعجز عن تحقيق المثل الاعلى الذي تستشرف اليه نفسه في الشعر والقيم الجمالية التي ينبغي توافرها في القصيدة اما ان يبدأ المرء ناقدا ثائرا يهدم سوءات القديم ليقيم مكانها حسنات الجديد ، ثم بعدئذ يندفع لقول الشعر فأمر فيه جرأة حقا وهو اذا دل على شيء فانما يدل على ثقة مفرطة بالذات ومخالفة للعادة والطبيعة في مجال الخلق الفني .

اترى نعيمة كان على وعي بأنه يرسم بشعره نموذجا لما يطلبه ويلح في نقده ؟.. اتراه يؤمن بأن جمهرة القراء سترى في شعره وفاء بالمنهج الذي رسمه وانسجاما وتطابقا مع المبادىء والقيم والشروط النقدية التي نادى بها ؟ ..

ولكن ما هو هذا المنهج النقدي في ميدان الشعر لدى نعيمة ؟ . وهل استطاع شاعرنا الناسك ان يخضع شعره لآرائه النقدية في الشعر وهل

التزم في قصائده النصائح التي وجهها الى الشعراء في لهجة تشبه الصراخ الناقم ! . .

ونحن ، هنا ، سنحاول ان نوجز اهم نقاط هذا المنهج مخضعين ما بين ايدينا من اشعار نعيمة لميزانه النقدي نفسه ولطريقته في الغربلة والتصفية .

اولا ــ يهاجم نعيمة هجوما ساخرا شعراء الوطن وبعض زملائه من شعراء المهجر لأنهم يصطنعون شعرهم للتكريم والتهنئة والتابين والوطنية وغير ذلك مما تفترضه المناسبة ويدعو اليه الواجب الاخلاقي او العرف الاجتماعي أو التزلف النفعي ويضرب كثيرا من الامثلة على ذلك ويهزا بقائليها . وقد كان نعيمة وفيا لهذا المبدا في ديوانه « همس الجفون » كل الوفاء ، فانت لا تقع فيه على قصيدة تحفل بمناسبة ما او تهتم بحدث عائلي أو تصير التفاتا الى مجاملات الصداقة والزمالة او طروحات السياسة ونزاعاتها حتى يصل به الانسجام مع نفسه في هذه الناحية الا يضمن ديوانه المذكور قصيدة بعنوان (من انت ؟ ما انت) نشرها في « السائح » عام ١٩٢٢ ويدور موضوعها حول غطرسة الغرب تجاه الشرق . ولان الغرب بات بعد الحرب العالمية الاولى سيد الارض بدون منازع ، وبات يدعي بأنه مهذب العالم ومعلمه والعامل على تحسينه وترقيته . وفيها يقول:

من انت ... ما انت تحكم البشر
كان في قبضتك الشمس والقمرا
تقسم الارض افتسارا مربعة
بما عليها وما فيها جوفها استترا
وتسلب الرزق اقواما لتمنحه
قوما واما شكوا لقمتهم سحرا

وتفصل الناس قطعانا فتذبح ما
تشاء منها وتبقي ما تشاء اثرا
كأنما الناس آلات تحركها
او ان نبع البقا من كفك انفجرا
من انت ، ما انت يابن الغرب تأمرني
وليس لي ردّ أمرٍ منك إن صدرا

ثانيا ـ ويرى نعيمة انه ينبغي الا يكون الشاعر « عبد زمانه ورهين ارادة قومه » ولكن ينبغي في الوقت ذاته الا يطبق عينيه ويصمّ اذنيه عن حاجات الحياة وينظم ما توحيه اليه نفسه فقط سواء كان لخير العالم او لويله ونحن اذا استعرضنا قصائد ديوانه نجد صدى عميقا لهذه الدعوى الذاتية الخالصة التي ينادي بها نعيمة معبرا عن احاسيسه الوجدانية وعن عالمه الخاص وعن ـ اكاد اقول ـ برجه العاجي ، لولا قصيدته الرائعة « أخي » التي يصور فيها مآسي الحروب وأشباح الموت ، داعيا الى انسانية سعيدة يرفرف عليها سلام مطمئن وسعادة روحية ، تمحي فيما بينها الفوارق العرقية واللونية والطبقية .

ثالثا ـ وحماسة نعيمة توقعه احيانا في شيء من التناقض الفكري وتباين المواقف أو فلنقل المرونة النقدية فهو يقول مثلا في الغربال : « الوزن ضروري أما القافية فليست من ضروريات الشعر لاسيما اذا كانت كالقافية العربية بروي واحد يلزمها في كل قصيدة ... ولا مناص لنا من الاعتراف بأنها ليست سوى قيد من حديد نربط به قرائح شعرائنا وقد حان تحطيمه من زمان » بينما نراه بعد قليل يقرر : « فلا الاوزان ولا القوافي من ضرورة الشعر » وان دل هذا التناقض على شيء فانه يدل على برم نعيمة بهذه الاغلال التي تغل القصيدة العربية . ومع كل ذلك وعلى الرغم من هذه الثورة العاتية على الوزن والقافية نرى نعيمة في شعره لم يتحلل منهما ، وان كان قد اختار في الغالب مجزوءات البحور

او البحور الخفيفة اللينة القصيرة ، ونوع القوافي المزدوجة حتى تحـول الشعر عند نعيمة الى نغمة يستطيع الانسان أن يترنم بها في صوت خافت ويجد لها طعما وذوقا ومذاقا خاصا . مما قرب اسلوبه الشعري في احايين كثيرة من حافة الاسلوب النثري باعتماده على ازدواجية الجمل المحدودة الطول . والفقرات المتوازنة المتساوية ، وامثلة ذلك :

روحي وخلينا ــ بالأرض لا هينا ــ نرعى أمانينا ــ في مرج اوهام
يارمز فكر حائر ــ ورسم روح ثائر ــ ياذكر مجد غابر ــ قد عافك الشجر
اسير في طريقي ــ في مهمه سحيق ــ ووحدتي رفيقي ــ ووجهتي الفضــا
انا الجلاد والآسي ــ انا القرار والهادي ــ انا البلوى ــ انا السلوى

وضيق نعيمة بالوزن دفع به ـ كما قلنا سابقا ـ الى ارتكاب الضرورات الشعرية المستقبحة . ونحن نرى صدى هذه الثورة على البحور الخليلية والقافية العربية في « همس الجفون » والتزاما بمبدأ نعيمة في النقمة عليها . ولولا أن النعيمي كان يحب ان يطلق عليه اسم « شاعر » ولـولا حرصه على هذه التسمية لنظم شعره حرا من قيود الوزن متحللا مـن اعباء القافية تنفيذا لتشهيره بها ؛ وقد يحق لنا ان نرى في شعره وفاءً، بمنهجه تجاه هذين العنصرين البارزين من عناصر الشعر .

رابعا ــ وقـد طالب نعيمـة الشـاعر ان يتجنب الخلخلة في ابيـات القصيدة والا ينتقل انتقالا فجائيا غريبا من نقد عنيف الى حكمة ... الى وصف ... الى غير ذلك وان يبتعد عن التناقض في المعاني كما دعـا الى أن تكون للقصيدة وحدتها العضوية كما مر معنا ، فلا ينفلت الشاعر من نائح يبكي الى ناقد يسخر الى مفرم يتغزل الى مادح .. الى شيخ .. الى اقتصادي الى عالم اجتماعي . الى فيلسوف ، الى لاهوتي .. الخ .

والواقع انه ليس بين شعراء الرابطة القلمية من هو ادق تمثلا للمخطط الكلي العام لقصيدته من نعيمة ، حتى ليخيل اليك انه على وعي كامل وفهم مسبق ببدايتها ووسطها وخاتمتها ووحدتها المعنوية وانسجامها الفكري وتسلسلها المنطقي وانسراحها الطبيعي فكانه بذلك رسمها امام ناظريه قبل ان يخط فيها حرفا واحدا وقد يكون ابو ماضي – كما يرى صاحب كتاب (الشعر العربي في المهجر) (أمريكا الشمالية) ادق احساسا منه بنمو القصيدة غير انه لا يدانيه في تصور الحدود الكلية التي تندرج فيها قصيدته ، واذا كان نعيمة لا يملك حدة الانفعال كأبي ماضي فان لديه الدقة الكلاسيكية التي تؤدي بصاحبها الى التركيز الشديد وتفصيل التعبير على جسم المعنى دون زيادة او نقص وهذا لا يتعارض مع ما قلناه سابقا عن استرساله مع فكرته فانما هو استرسال في داخل هذه الحدود ، فموضوع قصيدته النفسي الفلسفي التاملي هو الذي يملي عليه هذا الاسترسال لا اغفاله لحدود القصيدة او تهاونه في التركيز .

خامسا – وقد نبه نعيمة الشاعر الى ضرورة الابتعاد عن التقرير ، وطلب منه اللجوء الى الوصف ليحدث التأثير في القراء فانه لو بقيت شهرا – نقلا عن نعيمة – بل عاما اقول للناس : « ياناس اني بكيت » لما بكى معي احد ولما رق لحالي مخلوق ، غير اني لو ادخلتهم قلبي وقد خيم الحزن عليه وفتحت امامهم أبواب نفسي وقد غلقت في شراك الناس لتبللت مع عيني عيون ، وهذه هي مهمة الشاعر .

وقد استطاع نعيمة حقا ان يكون في شعره شاعر العواطف المصورة الموصوفة بشفافية وانسياب ، ففي غالبية قصائده تلمح تصويرا لحالات النفس تنبعث من الداخل : تصوير للنفس الانسانية في قلقها وسخطها وبرمها وتفاؤلها وانبساطها وايمانها . ووصف للطبيعة في عبوسها وجهامتها وفي فرحها وانطلاقها ورسم للعوامل النفسية في ذوات البشر بعقدها وأوهامها وبصفائها ورقتها ، انه يستوحي الحياة ويعطيها حياة

جديدة على الورق دون تقرير وفي قصيدته « اوراق الخريف » نجد مثالا واضحا على شيء كثير مما ذكرنا :

تناثري ... تناثري — يـا بهجـة النظـرْ
يامرقص الشمس ويا — ارجوحـة القمـــر
يا ارغن الليــل ويـا — قيثـــارة السمـر
يارمز فكـرٍ حائـرٍ — ورسـم روحٍ ثائـرٍ
ياذكر مجـدٍ غابـرٍ — قـد عافـك الشجرْ

تناثـري .... تناثـري

انها في حال تناثرها تذكره بكل تلك الصور الجميلة التي كانت تبدو فيها ولكن لم يعد لها موضع في الحياة ، فقد عافها الشجر ولم يبق امامها الا ان تسقط في التراب . وانها لرمز الانسان واطوار حياته فهو مايزال يتقلب فيها ليلا ونهارا . لم تحين ساعة الموت ولا مفر ولا خلاص فليقبله راضيا(١٥) .

ولكن لا يعني هذا ان نعيمة في جميع شعره لم يقع في مزلق التقرير ، وآفة المباشرة ، ومخاطر اللهجة الخطابية في الشعر ، ففي احدى قصائده (يخاطب فيها قلبه) يميل عن القصد ويلجأ الى افعال الامر ، كانه واعظ حتى يصل الى تغليب التقرير على التصوير :

اقلبي احكـم ولا ترهب — فمالي منك مـن مهرب
فانـت اليـوم سـلطاني — وانـت اليـــوم ربانـي

ادرنـي كيفمـا ترغـب

ودمـر كـل اسـواري — وفضـح كـلّ اسراري
وان تعشر فـلا تنـدم — وان تأمر فـلا ترحـم

وزد نـارا علـى نـار

سادساً — ولم يغفل نعيمة في منهجه النقدي أسلوب الشعر أو ما دعاه بالسروال الخارجي : دقة تراكيبه وحلاوة رنينه وطلاوة ألوانه وما أشبه .. والحق ان نعيمة من أصفى شعراء المهجر ديباجة ورقة لفظية وسبكا شعريا ؛ فهو من أولئك الشعراء الذين يعرفون كيف ينزلون الكلمة في منازلها وينشئون التركيب في استوائه لاهلهلة ولا تقعر ، وانما انسياب أشبه بانسياب الجدول الرقراق الصافي فوق الحصى البراق ، وتمثل غني خصب لموسيقا الشعر في حركتها الداخلية وفي جريانها الخارجي وقدرة ملموسة على التلوين العاطفي بأسا وقنوطا وحبورا وغبطة . وفي قصيدته (ابتهالات) لمع من هذا كله :

كحّل اللهمَّ عيني
بشعاعٍ من ضياكْ
كي تراني
في جميع الخلق : في دود القبورْ
في طيور الجوّ ، في موج البحارْ
في صهاريج البراري ، في الزهورْ
في الكلا ، في التبر ، في رمل القفارْ
في قروح البَرِص ، في وجهِ السليمْ
في يدِ القاتلِ ، في نجعِ القتيلْ
في سريرِ العرس ، في نعش العظيمْ
في يدِ المحسنِ ، في كفّ البخيلْ

الا أن هذا جميعه لا يمنع ان نعيمة كان احيانا يهوي الى حضيض النثرية السافرة والالفاظ والتراكيب اللاشعرية متأثرا بطبيعته الادبية ككاتب ناثر اولا ، وكفيلسوف صوفي ثانيا ، مثال ذلك قوله من قصيدة « النهر المتجمد » وهي القصيدة التي نظمها بداءة بالروسية ثم صاغها بعدئذ شعرا عربيا :

لكن سينصرف الشتا وتعود أيام الربيعْ
فتفكّ جسمك من عقال مكنته يد الصقيعْ
يانهر ذا قلبي أراه كما اراك مكبلا
والفرق انك سوف تنشط من عقالك وهولا

ومن قصيدته الى : M . B . D

انـا الدمع الـذي لمـا — بعينـك عندمـا انقشعا
لاول مــــرة عنهــــا — ضبـاب الغيب والوسن

سابعا : يرى نعيمة ان العصرية في الشعر ليست في ان يملأ الشاعر ديوانه بالصور والرسوم واللوحات وانما العصرية ان تستفيق نفوس الشعراء على رعشة الحياة في داخلها » لقد كان واحدهم سابقا يكتفي بنشر ديوانه مبوبا تبويبا محكما أو مرتبا حسب احرف الهجاء اما اليوم فتاخذ الديوان وتجد فيه عالما القصائد الشائقة « العصرية » رسوما لا تترك عندك من شك في عبقرية الناظم » .

والعجيب حقا ان يهاجم نعيمة الشعراء الذين يزينون ويحلون دواوينهم بالصور والرسوم ويعمد هو ـ زيادة في اظهار مواهبه ـ الى زركشة ديوانه « همس الجفون » بالواح ابدعتها ريشته وريشة زميله جبران خليل جبران (الطبعة الاولى للديوان ١٩٤٣ م نشر مكتبة صادر ـ بيروت) والرسوم منشورة مقابل الصفحات (٨ ـ ٢٠ ـ ٢٨ ـ ٥٢ ـ ٩٢) أما الخطوط فبريشة الشيخ نسيب مكارم وقد اعتمدت هذه الطبعة في دراستي .. انه الانسان .. انها الرومانسية .. اذ لابد للافكار المغرقة في المثالية من ضريبة ، وكثيرا ما تكون الضريبة تناقض الشاعر مع نفسه احيانا بين مبدئه النظري ، وانتاجه التطبيقي .

وبعد .. فقد كان تصور نعيمة للشعر احيانا تصورا ذاتيا خاصا به يدور في عالم نعيمي (اريد أن يدخل الشعر نفسي فيبعث فيها اما القلق

والدهشة او الوحشة والغبطة او الحزن إو الشك او اليقين او النشوة بلمحة شاردة من الجمال ، او كل هذه مجتمعة ، اريده ان يكون فلذة من كبد الشاعر لا رغوة من دماغه ، اريد ان يكشف لي مجاهل نفسي . . الخ. الخ . . اريده ان يزيد في ثروتي الروحية والجمالية بما فيه من قوة الروح والجمال لا ان يثير اعجابي بما فيه من متانة السبك وبراعة الصناعة وحسب ، وان كانت اشتات من هذا التصور تلتقي مع اشتات من تصور العقاد الا ان نعيمة استطاع الى حد كبير ان يعطينا في شعره ما طالب به في نقده وهذا مالم يستطع العقاد الوصول اليه . . والحقيقة التي لاسبيل الى انكارها ايضا ان نعيمة شاعر لم يبتذل ملكته الشعرية مرة واحدة ولم يتملق شعوره ابدا ، بل كان دائما مستلهما لما يؤمن به ، وفي هذا وحده ما يجعلنا نشعر بالاسف على انه انصرف عن حقل الشعر — وهو في ذروة عطائه — الى حقل النثر ، ولعله وجد المجال هنا اكثر اتساعا لنزعته الاستغراقية التأملية الشمولية التي لا يحتملها الشعر بما طبع عليه من تركيز ولمح وايحاء .

←

مراجع وهوامش :

(١) الغربال ـ ميخائيل نعيمة ـ دار صادر ـ دار بيروت . ط سابعة ـ ١٩٦٤ ، وتنظر آراء نعيمة النقدية الواردة في هذه الدراسة بخصوص الشعر في الصفحات : ٥٩ ـ ٦٢ ـ ٨٤ ـ ٨٥ ـ ١١٦ ـ ١٢٢ .

(٢) سبعون ـ ميخائيل نعيمة ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٠ ص ٤٧٦ .

(٣) يذكر د. نسيب نشاوي في كتابه (مدخل الى دراسة المدارس الادبية في الشعر العربي المعاصر) ـ دمشق ١٩٨٠ أن لميخائيل نعيمة ديوانا بعنوان (نجوى الغروب صدر عام ١٩٧٣ .

(٤) المرجع السابق ص ١٩٨٥ ، ويشير نشاوي الى الخطأ النحوي في استعمال نعيمة (أم) عند الاستفهام بـ (هل) في الشاهد الشعري الوارد .

(٥) الشعر العربي في المهجر ـ (امريكا الشمالية) ـ د. محمد يوسف نجم . د. احسان عباس ـ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٧ ـ ص ١٧٨ .

(٦) شعراء الرابطة القلمية ـ نادرة جميل السراج ـ دار المعارف ـ مصر ١٩٥٧ ، ويذكر نعيمة تأثره شعريا بالمدرسة الرومانسية الانكليزية ص ٢١٤ .

(٧) النقد الادبي الحديث ـ د. محمد غنيمي هلال ـ دار الثقافة ـ دار العودة ـ بيروت من ص ٣٩٤ ـ الى ص ٣٩٩ وانظر كذلك (محاضرات في الشعر المصري بعد شوقي) د. محمد مندور .

(٨) مذكرات الارقش ـ ميخائيل نعيمة ـ ص ٢٩ ـ ٣٠ وراجع ـ النثر المهجري ـ د. عبد الكريم الاشتر ـ ص ١٦٥ ـ ١٨٢ .

(٩) الشعر العربي في المهجر ـ مرجع سابق ص ١٢٥ .

(١٠) شعراء الرابطة القلمية ـ مرجع سابق ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .

(١١) سبعون ـ مرجع سابق ـ انظر المرحلة الاولى والثانية وعلاقة الشاعر بـ (فاريا) و (بيلا) .

(١١) سبعون ـ مرجع سابق ـ انظر المرحلة الاولى والثانية وعلاقة الشاعر بـ (فاريا) ١٩٦٤ ص ٩٠ ـ ٩٥ ـ ٩٧ .

(١٤) الشعر العربي في المهجر ـ مرجع سابق ص ١٨٧ .

(١٥) دراسات في الشعر العربي المعاصر ـ د. شوقي ضيف ـ دار المعارف مصر ١٩٥٩ ص ٢١٢ .

(١٦) مراجع اخرى : ١ ـ تاريخ الشعر العربي الحديث ـ أحمد قبش .
٢ ـ في الميزان الجديد ـ د. محمد مندور .
٣ ـ أدب المهجر ـ عيسى الناعوري .

صدر حديثاً من وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المأساة الحديثة

تأليف : ريموند ويليامز

ترجمة : د. سميرة بريك

< ✲ >

نظرات في هذا الزمان

او تأملات في النمو

تأليف : بييربا سكالون

ترجمة : صلاح الدين برمدا

< ✲ >

مرح وكآبة

قصـــة

تأليف : كونتيس دي سيفور

ترجمة : حسيب كاسوحة

< ✲ >

حول مؤتمر اللسانيات التطبيقية الرابع

تقنيات تعليم اللغات الأجنبية وتعلمها لغير الناطقين بها

المشكلة وحلول مقترحة

د. مازن الوعر

حول مؤتمر اللسانيات التطبيقية الرابع

تقنيات تعليم اللغات الأجنبية وتعلمها لغير الناطقين بها
المشكلة وحلول مقترحة

د. مازن الوعر

مدخل:

انعقد في جامعة اليرموك في الاردن ، وبالتحديد من ٢ ــ ٥ نيسان ١٩٨٥ « مؤتمر اللسانيات التطبيقية الرابع » وذلك برعاية من جامعة اليرموك وبالتعاون والتنسيق مع اقسام اللغات العربية والانكليزية والفرنسية وبعض المؤسسات الثقافية والعلمية والاكاديمية العربية والاجنبية .

شارك في هذا المؤتمر اكثر من خمسين باحثا مختصا باللسانيات النظرية واللسانيات التطبيقية كانوا قد اتوا من البلدان العربية التالية :

(سوريا — الاردن — مصر — السودان — اليمن الشمالي — اليمن الجنوبي — قطر — البحرين — الكويت — الامارات المتحدة — العراق — فلسطين « الضفة الغربية » — المغـرب) .

وقد ترأس المؤتمر وافتتحه الدكتور عدنان بدران رئيس جامعة اليرموك وقد اشرف على المؤتمر واداره الدكتور شاهر الحسن رئيس قسم اللغة الانكليزية بجامعة اليرموك وذلك بالتعاون مع الدكاترة محمد بدرين — عصام ابو سليم — جونثان اوينز — محمد شرفات — محمد زغول — والاستاذ بسام التل (جامعة اليرموك) .

أما البرنامج اللساني لهذا المؤتمر فقد دارت مناقشاته حول الموضوعات التالية التي القيت ونوقشت جميعها باللغة الانكليزية :

ا — اللسانيات التطبيقية .

آ — تعليم اللغات الاجنبية لغير الناطقين بها .

ب — وضع تدريس اللغات الاجنبية في الوطن العربي .

ج — تدريس اللغات الاجنبية وانعكاساته على قضية التعريب .

د — استراتيجيات تعليم اللغات الاجنبية وتعلمها واثر ذلك على اللغة القومية .

هـ — تعليم اللغات الاجنبية لاهداف محددة (العلم والتكنولوجيا) .

---

(١) بدعوة من جامعة اليرموك — قسم اللغة الانكليزية وبالتنسيق مع جامعة دمشق شارك صاحب هذه السطور في مؤتمر اللسانيات التطبيقية الرابع الذي اشتركت فيه الجامعات العربية . وقد قدم بحثا (بالانكليزية) حول ، النظرية التركيبية للجملة عند العرب القدماء في ضوء الدراسات اللغوية المعاصرة .
يمثل هذا البحث خلاصة موجزة لمشكلة تعليم اللغات الاجنبية وتعلمها لغير الناطقين بها والحلول المقترحة البناءة لتطوير حقل تعليم اللغة القومية واللغات الاجنبية .

و ــ مشكلات الانشاء والكتابة الاجنبية عند الطلاب العرب .

ز ــ المناهج اللغوية والبيداغوجية وتوظيفها في تعليم اللغة القومية واللغات الاجنبية .

ح ــ اختيار النصوص اللغوية وتقنية الكتاب المدرسي .

ط ــ الاختلافات بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة وأثر ذلك على تعليم استراتيجيات التخاطب باللغات الاجنبية .

ك ــ الاسلوبيات وتقنياتها المستخدمة لتعليم اللغة القومية واللغات الاجنبية .

٢ ــ اللسانيات النظرية .

آ ــ النحويات (علم التراكيب) .

١ ــ بنية التراكيب العربية عند العرب القدماء في ضوء الدراسات اللغوية المعاصرة .

٢ ــ اللواصق والكواسع : دراسة مقارنة بين الانكليزية والعربية .

٣ ــ الضوابط والقيود اللغوية المفروضة على القواعد في اللغتين العربية والانكليزية .

٤ ــ النظرية التوليدية والتحويلية وتطبيقاتها على اللغتين العربية

٥ ــ بنية الاعداد والضمائر والمتغيرات الطارئة عليها .

ب ــ الصوتيات (علم الاصوات الوظيفي /اللاوظيفي) .

١ ــ الصوامت والصوائت والنطق ذو المخرج المزدوج وموقع ذلك في التصنيف الصوتي .

٢ ــ تصميم مادة صوتية وظيفية لطلاب اللغات الاجنبية .

٣ ــ الصوائت العربية في اللهجة الفلسطينية .

٤ ــ بنية النغمة في اللغة الانكليزية .

٥ ــ البنية العروضية في اللهجة المغربية .

٦ ــ بنية المقطع وعملياته الصوتية في اللغة العربية .

جـ ــ الدلاليات (علم المعنى والدلالة) :

١ ــ المنهج الدلالي البراغماتي وموقعه من المعنى السطحي والمعنى العميق (الفلسفي ــ النفسي ــ الاجتماعي) .

٢ ــ الافرازات الدلالية للاعداد والضمائر ومتغيراتها .

٣ ــ المفهوم الدلالي للجملة العربية عند العرب القدماء .

٤ ــ العلاقات الدلالية في الافعال العربية .

٣ ــ اللسانيات الحاسوبية ــ المعلوماتية (معالجة اللغات في الحاسبات الالكترونية ((الكومبيوتر))) .

آ ــ استخدام الحاسبات الالكترونية (الكومبيوتر) في تعليم اللغات الاجنبية .

ب ــ نحو منهج الكتروني لوضع مواد تعليم اللغات الاجنبية .

جـ ــ الحاسبات الالكترونية والترجمات الالية والاستفادة البراغماتية منها في حقل تعليم الترجمة من اللغة القومية الى اللغات الاجنبية والعكس .

٤ ــ اللسانيات الاجتماعية :

آ ــ عبر الثقافات المختلفة : أثر الثقافة القومية فيتعليم اللغاتالاجنبية كتابة ونطقا وتفكيرا .

ب ــ التغيرات الاجتماعية الطارئة على اللغتين العربية والانكليزية من الوجهة التعليمية .

لقد وزعت هذه الموضوعات اللغوية على جلسات متتالية وحسب التالـي :

الجلسة الاولى : اللسانيات التطبيقية ـ منظور عام .

١ ـ تعلم اللغة الانكليزية لاغراض العلم والتكنولوجيا : نحو منهج بديل .

حسين حنيف (جامعة البحرين) البحرين .

٢ ـ تحليل الاهداف التعليمية عند الطلاب العرب المتعلمين للغة الانكليزية ، حمد النيل الفاضل (جامعة قطر) قطر .

٣ ـ اهداف تعليم اللغة الانكليزية في المدارس الثانوية في اليمن الشمالي اسماعيل ناجي (جامعة صنعاء) اليمن الشمالي .

٤ ـ نحو منهج الكتروني لوضع مواد تعليم اللغة الانكليزية .

عادل كوفيشي (الجامعة المستنصرية) العراق .

٥ ـ اللغة الانكليزية من اجل اغراض الدراسات العليا .

محمد زغول (جامعة اليرموك) الاردن .

الجلسة الثانية : اللسانيات التطبيقية ـ منظور عام .

١ ـ وضع تدريس اللغة الانكليزية في السودان : الممارسات في الماضي والحاضر .

توحيدة حضوة (جامعة الخرطوم) السودان .

٢ ـ تدريس اللغات الاجنبية من اجل اغراض التعريب .

عشاري احمد محمود (معهد الخرطوم الدولي للغة العربية) السودان .

٣ ـ استراتيجيات التخاطب ومدلولاتها على الكفاءة اللغوية .

رجائي الخانجي (الجامعة الاردنية) الاردن .

٤ ـ حاجات معلمي اللغة الانكليزية اللغوية والبيداغوجية .

علي حسين (جامعة الامارات العربية المتحدة) الامارات العربية المتحدة .

٥ ـ مدخل الى منهج تعليم الترجمة الى اللغة الانكليزية للطلاب العرب . ليون باركو (جامعة الموصل) العراق .

الجلسة الثالثة : اللسانيات التطبيقية ـ الكتابة والانشاء .

١ ـ من اللغة المنطوقة الى اللغة المكتوبة : منهج لتعليم الانشاء .

مارشا قطرية (جامعة قطر) قطر .

٢ ـ مشكلات الكتابة الانكليزية عند الطلاب العرب : دراسة بلاغية مقارنة .

نايف خرما (جامعة الكويت) الكويت .

٣ ـ تقييم الاخطاء الاتصالية : دراسة حول تقييم بعض الامريكيين للاخطاء التي يرتكبها الطلاب العرب عندما يتعلمون اللغة الانكليزية .

عزيز خليل (جامعة بيت لحم) فلسطين ـ الضفة الغربية .

٤ ـ الاخطاء اللغوية الانكليزية التي يرتكبها الطلاب العرب في مستوى ما بعد الجملة .

جوليانا باز (جامعة البصرة) العراق .

٥ ـ عبر الثقافات : اثر الخطاب العربي في تعلم الكتابة الانكليزية .

كريستينا ابو الثاني (جامعة البحرين) البحرين .

الجلسة الرابعة : اللسانيات التطبيقية ـ الكتابة والانشاء وموضوعات اخرى .

١ ـ ضرب عصفورين بحجر واحد : تهجئةالاصوات الانكليزيةووضع كتاب صوتي مقارن للطلاب العرب .

ليندا ثاير (جامعة البحرين) البحرين .

٢ — عوامل تقييم النصوص النثرية المكتوبة باللغة الانكليزية من قبل الطلاب العرب الجامعيين وارتباطها بتلاحم الافكار في النص .
عمر عطاري (جامعة بيرزيت) فلسطين — الضفة الغربية .

٣ — الاسلوبية وتعليم اللغة الانكليزية للطلاب العرب .
مفيق دوشاق (جامعة اليرموك) الاردن .

٤ — استراتيجيات تجنب الدلالة والمعنى الغامض في تعليم اللغة الانكليزية .
عبد الجبار العلي (جامعة البصرة) العراق .

٦ — استقبال الطلاب العرب للنغمة الانكليزية وأثر ذلك في تفريق الانكليزية .
ديرك هارت (جامعة البحرين) البحرين .

٧ — دراسة لغوية اجتماعية للتغيرات الطارئة على اللغتين العربية والانكليزية عند الطلاب العرب الذين يدرسون في اقسام اللغات الانكليزية .
ابراهيم سالو (جامعة الموصل) العراق .

الجلسة الخامسة : اللسانيات النظرية — النحويات (علم التراكيب).

١ — النظرية التركيبية للجملة العربية عند العرب القدماء في ضوء الدراسات اللغوية المعاصرة .
مازن الوعر (جامعة دمشق) سوريا .

٢ — بنية العطف في نظرية النحو المستقل .
جونثان اوينز (جامعة اليرموك) الاردن .

٣ — النظرية التوليدية والتحويلية في اطارها المعدل .
خليل عمايرة (جامعة اليرموك)الاردن .

٤ — ملاحظات حول الضوابط المفروضة على اللغتين العربية والانكليزية .
مرتضى جواد باقر (جامعة البصرة) العراق .

الجلسة السادسة : اللسانيات ـ الدلاليات (علم المعنى والدلالة)

١ ـ بنية الاعداد والضمائر ومتغيراتها الدلالية .

توماس كابتن (جامعة بيرزيت) فلسطين ـ الضفة الغربية .

٢ ـ العلاقات الدلالية في الافعال العربية .

محمد الياسين العجلوني (جامعة اليرموك) الاردن .

٣ ـ صيغة الاستفهام ومعانيها غير المباشرة ضمن اطار المنهج البراغماتي .

سيد زايد (جامعة القاهرة) مصر .

الجلسة السابعة : اللسانيات النظرية ـ الصوتيات (علم الاصوات الوظيفي / اللاوظيفي) .

١ ـ بنية المقطع وعملياته الصوتية في اللغة العربية .

عبد الرفيع بن حلام (جامعة الرباط) المغرب .

٢ ـ حول تطبيقية النموذج الصوتي ـ العروضي على اللهجة المغربية .

الجلالي ساير (جامعة الرباط) المغرب .

٣ ـ حول الوضع الفونولوجي الصوتي للحروف الحلقية العربية .

عصام أبو سليم (جامعة اليرموك) الاردن .

٤ ـ ملاحظات حول النطق ذي المخرج المزدوج وموقعه في التصنيف الصوتي .

عبد الله السقاف (جامعة عدن) اليمن الجنوبي .

٥ ـ الصوائت العربية في اللهجة الفلسطينية .

جيمس كورميك (جامعة بيرزيتا) فلسطين ـ الضفة الغربية .

٦ ــ الضوابط الصوتية المفروضة على التغيرات الداخلية للغتين العربية والانكليزية .
امين البامرني (جامعة الموصل) العراق .
٧ ــ الصوائت في اللغة البربرية .
يوسف بدر (جامعة اليرموك) الاردن .
٨ ــ العملية الصوتية في اللهجة العمانية .
قاسم شعبان (الجامعة الاميركية في بيروت) لبنان .

١ ــ بيداغوجيات(*) تعليم اللغات الاجنبية وتعلمها :

لقد بات معروفا أن تعلم اية لغة اجنبية من اجل التواصل المجتمعي الحضاري لا يعني بالضرورة اللحاق بالثقافات والعادات والتقاليد التي تفرزها تلك اللغة الاجنبية . ان تعلم لغة اجنبية واتقانها يعني فتح نافذة مغلقة على عالم مجهول غير معروف ويعني أيضا الانفتاح الحضاري الذي يغني العقل البشري التواق الى معرفة المجهول ومعالجته معالجة تتفق مع الواقع الذي تنشده .

هذه الظاهرة اللغوية مهمة جدا في حقل التواصل بين الامم عرفتها ثقافتنا العربية الاسلامية القديمة عندما كونت حضارة كانت نتاج لقاح العربية بلغات الثقافات الاجنبية ، ذلك ان الانفتاح على نوافذ العالم الخارجي عبر لغاتها المتعددة كان عاملا أساسيا في اغناء الحضارة العربية الاسلامية وتطويرها تطويرا يتجاوز الزمان والمكان والجنس والعرق ويتجاوز أيضا ما كان مألوفا ومعروفا في تلك الثقافات واللغات الاجنبية .

وهكذا فان ربط اللغة الاجنبية بالايديولوجية التي من خلالها يتحرك مجتمع ما انما هو ربط خاطىء . فاذا اخذنا الانكليزية وربطناها

(*) بيداغوجيات (Pedagogy) = علم أصول التدريس . المورد . (١٩٧٠) بعلبكي .

بايديولوجية المجتمع الامريكي ... تلك الايديولوجية التي تتصف بالامبريالية والاستعمار والسيطرة ونهب خيرات العالم فان ذلك لا يعني عدم الاطلاع على اللغة الانكليزية وتعليمها وتعلمها طبقا لانجع الاساليب والمناهج الحديثة . ذلك لان اللغة الاجنبية هي الوسيلة الوحيدة التي من خلالها يمكن لنا معرفة عقلية الشعوب وتفكيرها ويمكن لنا من خلالها ايضا نقل العلم والتكنولوجيا وكل ما يفيد الانسانية حاضرا ومستقبلا .

هذه هي الحقيقة العلمية الجوهرية التي انطلق منها الباحثون في مؤتمر اللسانيات التطبيقية الرابع عندما عالجوا وضع اللغات الاجنبية في الوطن العربي ومن خلال اللغة العربية القومية .

والواقع لقد تم في هذا المؤتمر معالجة قضايا عديدة تتعلق بحقل تعليم اللغات الاجنبية واساليبها وتقنياتها ومناهجها البيداغوجية التربوية وذلك من اجل تعليم افضل وتعلم انجع للغات الاجنبية التي بدورها ستمكننا من معرفة المجهول ثقافة وعلما وحضارة من اجل تكوين مجتمع منفتح متطور قادر على الاتصال السليم المبني على اسس واضحة وعلاقات دينامية ناطة ومنفعلة بين اللغة القومية واللغات الاجنبية . وهذا بدوره سيبعد كل ما يمكن أن يكون التباسا وغموضا يكتنف اللغات البشرية .

فاذا فهمنا هذه المعادلة الحضارية كما فهمها السلف من العرب القدماء والخلف من العرب المعاصر وطبقناها نحن العرب المعاصرين على واقعنا العربي الاكاديمي التعليمي فاننا سنكتشف بأن المعلمين والمتعلمين العرب بشكل عام يعانون من أساليب تعليم اللغات الاجنبية ، وتعلمها ، الامر الذي يؤدي الى أن الانسان العربي يتعلم اللغة الاجنبية في الوطن العربي لمدة ثلاث عشر سنة ويكون في وضع متفوق بهذه اللغة سواء في المدرسة أو الجامعة ولكنه عندما يذهب الى البلد الذي يتكلم أهلوه تلك اللغة الاجنبية فانه سيكتشف بان معرفته التي كونتها الثلاث عشرة سنة لا تتجاوز الـ ٥ ٪ من معرفة اللغة الاجنبية وذلك عندما يمتحن

امتحانا لغويا يشمل النطق ، والكتابة ، والقراءة والاصغاء . وهـذا بالطبع له أسبابه وعوامله المتعلقة بوضعية المعلم والمتعلم والمادة المعلمة والمنهج المستخدم في عملية التعليم ثم المحيط الذي تتم من خلاله عملية التعليـم .

ان هذه العوامل التي تكون العملية التعليمية في الوطن العربي مـا زالت عوامل تقليدية لا تراعي المناهج والاساليب التعليمية الحديثـة المتأثرة بالمتغيرات الثقافية والفكرية والاجتماعية والتربوية التي استفادت كثيرا من علم اللسانيات التطبيقي وبالتالي استفاد الغرب منهـا في تعليم لغاته لغير الناطقين بها .

وهكذا ينبغي ان نستخدم في حقل تعليم اللغات الاجنبيـة لغـير الناطقين بها البيداغوجيات والمناهج اللغوية والتربوية الحديثة التي هي مبنية على استراتيجيات مستنبطة من دراسات جدية عميقة لبنية اللغة القومية ولبنية اللغات الاجنبيـة والثقافات التي تمثلها ثم الطـرائق والاساليب التي من خلالها يمكن الاتصـال والتوصيل بهذه اللغـات الاجنبيـة .

ان نجاح تعليم اللغات الاجنبية وتعلمها يستند الى طبيعة الاهداف التي من اجلها تتم عملية التعليم والتعلم . ان اهداف تعليم اللغـات الاجنبية وتعلمها في الوطن العربي غير واضحة المعالم سواء أكان ذلـك على صعيد التخطيط السياسي ام التخطيط اللغوي الذي هو اصلا مستند الى القرار السياسي . وهذا بالطبع قد خلق مشكلات كثيرة يتعلق اغلبها بالرؤية الحاضرة والمستقبلية لعملية تعليم اللغـات الاجنبية وتعلمها في الوطن العربي . هذه المشكلات الناتجة عن عدم التخطيط السياسي واللغوي ستؤثر على نظرتنا نحن العرب الى اللغة العربيـة كلغة قومية ولغة عالمية في الوقت نفسه وستؤثر على التخطيط السياسي واللغوي لتلك اللغة لنشرها بين الشعوب وفي المحافل الدوليـة كلغـة اجنبيـة .

من هنا ينبغي على التخطيط اللغوي السياسي في الوطن العربي ان يضع برنامجا وطنيا وقوميا ودوليا واضحا لسياسة تعليمية على مستوى كل قطر عربي وعلى مستوى الاقطار العربية مجتمعة ثم على مستوى العالم . هذه السياسة ينبغي أن تكون ذات مبادىء واضحة وأهداف قومية نافعة . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى ينبغي ان نشدد على التخطيط اللغوي البيداغوجي التربوي من أجل تعليم اللغة القومية واللغات الاجنبية وتوصيلها بطرائق ومناهج حديثة جدا مستفيدة من تقنيات علم اللسانيات التطبيقي . هذه الطرائق والاساليب والمناهج ينبغي ان تستند الى الواقع الوطني والقومي والاممي في سياق التطورات الاجتماعية والفكرية والثقافية التي تمر بها الامة العربيـة .

ولما كانت حركة العلم والحضارة والتكنولوجيا السريعة في جريانها وسرعتها تشبه حركة الضوء فانه لا بد من استخدام الالة في حقل تعليم اللغات الاجنبية . اي استخدام الحاسبات الالكترونية (الكومبيوتر) في معالجة اللغات البشرية وذلك من اجل السرعة في الترجمات الاليـة لانجاز الاهداف العلمية وتوصيل كل ما يستجد في الحضارة التربوية عن طريق لغاتها ولكن بطريقة علمية سريعة أساسها الحاسبات والادمغة الالكترونية .

وهكذا يمكننا الاستفادة في حقل تعليم اللغات الاجنبية من الحاسبات الالكترونية واستخدامها في تصميم مواد لغوية مختلفة مستندة الى قاعدة علمية واضحة . اضف الى ذلك انه يمكننا تصميم حاسبات الالكترونية واستخدامها في تصميم مواد لغوية مختلفـة مستندة الى القراءة والقواعد والتهجئة والنطق والاصغاء باللغات الاجنبية . ولكن هذا الامر يحتاج الى معرفة تقنية الحاسب الالكتروني والتعلم على تشغيله والتعامل معه ، وهذا لا يحتاج الا الى جهد مكثف متواضـع يبذله المتعلم .

ان الشيء المدهش في الحاسبات الالكترونية هو ذاكرتها المتصفة بالبعد الزمني اللا متناهي والتي تخزن كميات ضخمة من المعلومات في طريقة علمية وسريعة . هذه الذاكرة تختلف عن ذاكرة الانسان المتصفة بالبعد الزمني المحدود والقصير الامد .

وباختصار ، ان مهمة تعليم اللغات الاجنبية وتعلمها هي مهمة حضارية ملحة ينبغي ان نلتفت اليها ونطورها ونحسنها وفق أنجع الاساليب والبيداغوجيات الحديثة المستندة الى الدقة والعلمية . من وسائل هذه البيداغوجية الحاسبات الالكترونية التي من مهمتها السرعة والدقة والموضوعية بحيث يمكن لنا نحن العرب نقل العلم والتكنولوجيا وكل ما يفيد الانسانية عن اللغات الاجنبية لنغني ونطور لغتنا العربية وثقافتنا الحديثة والمعاصرة .

٢ ــ وضع اللغات الاجنبية في الوطن العربي : أتنافس مع العربية أم اغناء لها ؟

ان هذا السؤال يطرح مقولة جدلية تبدو ملتبسة وغامضة . فمن ناحية نريد ان نطور حقل تعليم اللغات الاجنبية وذلك بفتح النوافذ على لغات العالم وثقافاته المتعددة من خلال انشاء المراكز اللغوية الجديدة بكل تقنيتها ومناهجها وأساليبها . وهذا يتطلب دعما ماديا ومعنويا يحتاج الى تخطيط واع وسليم والى جهد وعمل متواصلين . ومن ناحية اخرى نريد نحن العرب وخاصة بعد الاستقلال من الاستعمار الاجنبي ان نطهر كل ما دنسه الاستعمار لغويا وفكريا وثقافيا وعلميا . وهذا يعني انه يجب علينا ــ حفاظا لهويتنا القومية الحضارية ــ ان نحول المؤسسات والادارات من طابعها الاجنبي الى الطابع العربي الاصيل .

هذا الاجراء سيؤثر بدوره على العملية اللغوية والعلمية اذ ان كثيرا من النشاطات العلمية والاكاديمية في أغلب الجامعات والمؤسسات العربية

انما تتم من خلال اللغات الاجنبية (٢) . حتى ان هناك علوما حديثة ليس لها وجود على الاطلاق في الثقافة العربيـة الاكاديمية والتي لا يمكـن تدريـسها الا باللغات الاجنبية .

والواقع وعلى الرغم من جدلية هذه المعادلة اللغوية الا اننا لا ينبغي ان نفهمها في اطارها السلبي الجامد بل ينبغي أن نتطلع اليها في اطارها الايجابي المنفتح والمتطور والخاضع الى ضوابـط صحيحة وسليمة . صحيح اننا نريد تعريب النشاطات العلمية والتكنولوجية والاكاديميـة والثقافية الا ان ذلك لا يمكن ان يكون الا من خلال تهيئة الكادر القادر على فهم اللغات الاجنبية واتقانها نطقا وسمعا وكتابة وقراءة ثم معرفة العلوم والتكنولوجيا التي تمثلها تلك اللغات .

فاذا اردنا تطوير الواقع العربي تطويرا حضاريا منفتحا على كل ما يستجد في عالم العلم والتكنولوجيا فانه لا بد من ان نطور حقل تعليم اللغات الاجنبية تطويرا يشمل الانسان المعلم والانسان المتلقي والمادة المعلمة ثم المنهج والاسلوب الذي من خلالهما تتم عملية التعليم والتعلم وذلك لكي يكون النقل والاتصال الحضاري ممكنا وسهلا ومستمرا .

وهذا يعني رفض البيداغوجيات التربوية القديمـة ثم التخطيط اللغوي القديم الذي رسم لهذه البيداغوجيات وما يزال .

ان تطوير الواقع العربي الراهن لم يعد ممكنا باستمرارية التخطيط اللغوي المبني على التفكير بالاساليب القديمة تجاه اللغات الاجنبية والتي

---

(٢) نستثني من ذلك التجربة الرائدة والرائعة التي قامت بها سوريا بتعريبها العلوم التي تدرس في جامعات القطر . ويعود هذا الى الجهود الطيبة والخيرة التي بذلها مجمع اللغة العربية في العشرينات من هذا القرن وما يزال . ويحذو حذو هذه التجربة الرائدة اغلب البلدان العربية وذلك بفضل الجهود التي تبذلها مجامع اللغة العربية في القاهرة وبغداد وعمان ثم مكتب تنسيق التعريب ومركز الدراسات والابحاث للتعريب في الرباط ـ المغرب .

لم تستفد من تقنيات علم اللسانيات التطبيقي حتى الان . هذه النقطة كانت مجالا للمناقشة والتطوير بحثها المشاركون في مؤتمر اللسانيات التطبيقية الرابع مبينين حالة اللغات الاجنبية في الوطن العربي في الماضي والحاضر وكيف يمكن ان تكون في المستقبل .

لقد آلت حالة اللغات الاجنبية في الوطن العربي الى السوء ولم تعد كما ينبغي أن تكون وربما يعود السبب في ذلك الى ما يلي :

١ ــ السياسة العشوائية والسلوكية السلبية تجاه اللغات الاجنبية .

بما ان اللغات الاجنبية ارتبطت بالاستعمار الاجنبي وبما ان الاستقلال ودحر الاجنبي كان الهدف الوحيد الذي سعى اليه العرب قبل الاستقلال فقد تبع ذلك رفضا للغات الاجنبية وسلوكية سلبية تجاهها .

فبعد أن كانت اللغات الاجنبية لغات ادارة وعمل في كل المؤسسات والادارات الرسمية قبل استقلال البلاد العربية فقد تحولت الى لغات اجنبية مرفوضة بأي شكل من الاشكال وذلك لانها ارتبطت بالمستعمر الغازي الذي ترك آثارا سلبية في الوطن العربي والذي كان اساسا في تخلفه وخلق المشكلات والويلات له . اضف الى ذلك أن برنامج التعريب الذي لم يستند الى التخطيط العلمي الواعي والسليم والذي لم يكن الا ردة فعل عاطفية على اللغات الاجنبية في الاقطار العربية اثر على تطور تعليم اللغات الاجنبية وتعلمها . وتبع هذا بأن المؤسسات والمدارس والمعاهد الاجنبية قد انخفضت من الناحية الكمية . وهذا بدوره ساهم في التقليل من أهمية اللغات الاجنبية وفعاليتها .

٢ ــ الضغوط الاقتصادية والمهنية .

ان حاجة المؤسسات والادارات الجديدة المرتبطة ببرنامج التعريب الى عاملين ومتخصصين باللغة القومية اثرت على تعليم اللغات الاجنبية

وتعلمها . هذا من جهة ومن جهة اخرى انخفضت كمية المصادر المالية المخصصة لبرنامج حقل تعليم اللغات لصالح البرنامج التعريبي . اضف الى ذلك عدم التخطيط الثقافي وعدم تأهيل اساتذة اللغات الاجنبية وتدريبهم الذي يحتاج الى نفقات وتقنيات متطورة .

٣ ــ غياب البرنامج اللغوي الواضح وندرة الكتاب المدرسي الملائم ، وهذا الامر لا يتم بالفعل الا من خلال التنسيق والتعاون مع الخبرة الاجنبية المتخصصة بلغاتها القومية ذلك لان هذا التعاون والتنسيق سينتج ثمرة رائعة في حقل تعليم اللغات الاجنبية (٢) .

هذه الاسباب المذكورة واسباب اخرى قللت من اهمية اللغات الاجنبية والعناية بها وتبع هذا ان عملية النقل للعلم والتكنولوجيا اصبحت عملية بطيئة جدا لا تخضع لبرنامج واضح مبني على اسس سليمة .

والحقيقة لقد قدم المشاركون في مؤتمر اللسانيات التطبيقية الرابع عدة حلول لمعالجة هذه المشكلة معالجة تتفق مع الحاجات الوطنية والقومية التي لا تتضارب ابدا مع عملية تطوير حقل تعليم اللغات الاجنبية لغير الناطقين بها .

(٢) ناخذ على سبيل المثال التخطيط الواعي السليم الذي وضعته وزارة التخطيط في سوريا فيما يخص اتفاقية التعاون الثقافي التي وقعتها عام ١٩٧٨ مع جامعة جورجتاون في الولايات المتحدة تم بموجبها ارسال عشرة اساتذة امريكيين متخصصين بتعليم اللغة الانكليزية لغير الناطقين بها الى سوريا لانشاء مركز حديث لتعليم اللغة الانكليزية تابع لوزارة التخطيط . وبموجب هذه الاتفاقية ايضا تم ارسال عشرة اساتذة عرب سوريين الى جامعة جورجتاون للحصول على مؤهل علمي يمكنهم من تعليم اللغة الانكليزية لغير الناطقين بها وفق المناهج والاساليب الحديثة المستفيدة من تقنيات علم اللسانيات التطبيقي . وقد نفذت بالفعل هذه الاتفاقية وعاد كل الاساتذة السوريين ليطوروا في هذا المركز اللغوي واخص بالذكر الجهد الطيب والخير الذي بذلته الباحثة ردينة حداد والباحثة لمان حسيني وما تزالان لتطوير هذا المركز علميا واداريا .

فقد طرحت هذه الحلول معادلة التوازن اللغوي الاستراتيجي النفعي ما بين تطوير اللغات الاجنبية من جهة وما بين اغنـاء اللغة العربيـة القوميـة من جهـة اخرى وذلك لكي تصبح قادرة على التعبير عـن مستحدثات العلوم والتكنولوجيا الحديثة .

هذه القضية مهمة اذا تمعناها تماما وربطناها مع الواقع العربي الراهن ، ذلك ان هناك عمليتين اثنتين للتخطيط الـلغوي في الجامعات والمؤسسات العربية . تتعلق الاولى بقضية التخطيط اللغوي من أجـل برنامج التعريب، وتتعلق الثانية ببرنامج التخطيط اللغوي من اجل انشاء مراكز للغات الاجنبية وتطوير حقل تعليمها لغير الناطقين بها .

والواقع ان البرنامجين المذكورين لا يسيران وفق خطة تعاونيـة تنسيقية معينة وانما هما برنامجان يتنافسان بعضيهما بعضا . هـذا التنافس السلبي بين برنامج اللغات الاجنبية وبرنامج اللغة القومية ولد مشكلات منهجية اعاقت عملية التعريب وبالتالي اعاقت من تقدم اللغات الاجنبية تقنية وتعليما وتعلما .

وهكذا ينبغي علينا ان نفهم هاتين العمليتين على أنهما عملية واحدة ذات وجهين مختلفين ولكنهما متفاعلين . اي انه ينبغي ان نطور تقنيات تعليم اللغات الاجنبية واساليبها ومناهجها في الوطن العربي ولكن هـذا التطوير ينبغي ان يكون ضمن اطار برنامج حركة التعريب من أجل ان يخدم اغراضها وبالتالي يسرع من عملية نقل العلم والتكنولوجيا مـن اللغات الاجنبية الى اللغة العربية . وهذا يعني ان تتبنى الجامعات العربية برنامجا منهجيا ملموسا وواضحا لتعليم اللغات الاجنبية يتفق مع الحاجات الوطنية والحاجات القومية . هذا البرنامج والمنهج الواضح ينبغي أن يعتمد على مفاهيم حديثة ومتطورة في عملية تعليم اللغات الاجنبية من اجل اهداف التعريب . وينبغي علينا في هذه الحالة ان نطبق هذا البرنامج والمنهج الواضح على خطوات متتالية وذلك لكي نضمن

تطوير اللغات الاجنبية وتحسينها وبالتالي نضمن تطور اللغة العربية القومية لتصبح في المستوى الحضاري المصري المطلوب .

ولكن القضية المهمة المطروحة في عملية تطوير حقل اللغات الاجنبية من اجل خدمة الاهداف التعريبية هي قضية متعلقة بالوسائل اللغوية والبيداغوجية التربوية المطلوبة .

لقد كان الاعتقاد السائد وما يزال عند بعض المهتمين في هذا الحقل بأن نجاح معلمي اللغات الاجنبية لتوصيلها لغير الناطقين بها يعتمد على الكفاءة والتجربة المهنية والاكاديمية التي اكتسبها معلمو اللغات الاجنبية خلال السنين .

ولكن هذا الاعتقاد غير صحيح ذلك لان خبرة معلمي اللغات الاجنبية تعد عاملا واحدا من عدة عوامل لها أثرها في هذا المجال كالمنهج التعليمي والمادة اللغوية المعلمة والاستعدادات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية لمتعلمي اللغات الاجنبية . اضف الى ذلك المحيط الذي تتم فيه عملية التعليم والتعلم .

من هنا بدأ المتخصصون في حقل تعليم اللغات الاجنبية بوضع برامج فعالة وناجحة لتعليم اللغات الاجنبية تنطلق من الحاجات التي يتطلبها معلمو اللغات الاجنبية انفسهم ومن المواد اللغوية المدروسة ثم من الحاجات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية المتعلقة بالمعلمين والمتعلمين . فاذا أردنا تطوير الوسائل اللغوية والبيداغوجية التربوية في حقل تعليم اللغات الاجنبية فانه لا بد من مراعاة التالي :

١ ــ التأكيد على النطق السليم والمفردات اللغوية الشائعة والمناسبة وتطوير المهارات السمعية والكلامية والكتابية ثم الثقافة العامة ومعرفة حياة الناطقين باللغة الاجنبية وتفكيرهم وعاداتهم وتقاليدهم .

٢ ــ تطوير اساليب تعليم اللغات الاجنبية ومناهجها . وهذا يشمل تطوير المواد اللغوية المقدمة للطلاب وتطوير تقنياتها وخلق الحوافز التي تقرب بين المعلمين والمتعلمين .

٣ ــ لا بد لمعلمي اللغات الاجنبية من الاطلاع على الدوريات والمجلات المتخصصة في هذا المجال وذلك لتطوير مهنتهم التعليمية ومهاراتهم التربوية .

٤ ــ أن تكون المواد التدريبية التي يستخدمها المعلمون في الصف فعالة وناجعة وواقعية اكثر من كونها نظرية مثالية . أضف الى ذلك انه ينبغي أن يكون مضمون هذه المواد التدريبية واقعيا يتفق مع حاجات الطلاب وأهدافهم والواقع الذي يعيشون .

٥ ــ ينبغي ان يكون عدد الطلاب قليلا ومناسبا في الصفوف وعدم تكليف اساتذة اللغات الاجنبية بأعباء ضخمة . وينبغي أن يكون هناك دورات مكثفة ومتوالية لتدريب اساتذة اللغات الاجنبية على اهم المناهج الحديثة في حقل تعليم اللغات مع اعتبار الحافز المادي الذي هو اساس البحث العلمي .

والواقع ان كل هذه العوامل لا يمكن لاساتذة اللغات الاجنبية تحقيقها الا اذا كانوا على اطلاع عام ببنية اللغة الناطقين بها وببنية اللغة الاجنبية صوتيا ونحويا ودلاليا ثم علاقة هذه البنية اللغوية بالتقنيات الحديثة .

وهذا يجرنا للحديث عن علاقة اللغة بالآلة او (الكومبيوتر) وعن حقل الترجمة من اللغة القومية الى اللغة الاجنبية والعكس . وذلك لان الترجمة هي من اهم الوسائل والتقنيات البيداغوجية التربوية التي ينبغي لحقل تعليم اللغات الالتفات اليها .

ان أساليب الترجمة من اللغات الاجنبية واليها ليست اساليب علمية تكنولوجية في الوطن العربي لان كثيراً من النصوص المترجمة والمقدمة

للطلاب لا تراعي العوامل الداخلية للنصوص المترجمة ثم الخلفيات الثقافية والاجتماعية التي تدل عليها . وقد دل الكتاب المدرسي للترجمة في اغلب جامعات الوطن العربي انه لا يقدم الكثير الى الطالب والمتعلم لذلك فان النتيجة هي تخريج طلبة غير كفء لترجمة النصوص اللغوية من اللغات الاجنبية واليها .

وهكذا فان تقنيات الترجمة ينبغي ان تستند الى اسس علمية تستفيد من علم اللسانيات الحاسوبي ـ المعلوماتي (الكومبيوتري) الحديث(٤) كوضع برنامج دقيق يراعي حاجات المتعلمين واختيار الكتاب المدرسي الذي يضم النصوص اللغوية الملائمة ذات المقارنات الاساسية بين اللغتين القومية والاجنبية من حيث الاصوات والكلمات والمركبات والجمل ومستوى ما فوق الجمل .

وباختصار . ان العلاقة بين اللغة القومية واللغات الاجنبية ينبغي ان تكون علاقة ايجابية فاعلة ومتفاعلة في الوقت نفسه بحيث يمكن للغة القومية أن تتطور تطورا حضاريا علميا وتكنولوجيا ويمكن للغات الاجنبية ان تصل الى غير الناطقين بها عن طريق استخدام افضل التقنيات والبيداغوجيات المبنية على أسس علمية مضبوطة وموضوعية .

٣ ـ اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة : أيهما أهم في حقل تعليم اللغات الاجنبية ؟

كل لغة من لغات العالم لها شكلان متميزان : الشكل المنطوق والشكل المكتوب . وقد كان يظن قديما وحتى الى حين بـأن اللغة المكتوبـة هي

---

(٤) لمزيد من الاطلاع على علم اللسانيات الحاسوبي ـ المعلوماتي وتطبيقاته على الترجمات الآلية وتصميم نماذج لغوية مبرمجة انظر :

الوعر ، مازن (١٩٨٢) . « اللسانيات والعلم والتكنولوجيا : نحو تعريب موحد للسانيات التطبيقية وبرمجتها في الحاسبات الالكترونية » مجلـة اللسان العربي الصادرة عن مكتب تنسيق التعريب ـ الرباط ـ المغرب العدد ٢٢ السنة ١٩٨٢ .

انعكاس للغة المنطوقة . ولكن الدراسات اللسانية الاجتماعية المعاصرة كشفت بأن لكل لغة من تينك اللغتين مكوناتها وشخصيتها ومميزاتهـا وعواملها التي تميزها عن مثيلتها . وهذا بالطبع لن يؤثر فقط على تعليم اللغات الاجنبية لغير الناطقين بها ويفرض بالتالي أساليب ومناهج معينة تتفق وطبيعة الشكل اللغوي المعلم (منطوقا كان أم مكتوبا) وانما سيؤثر ايضا على تعليم اللغة القومية للناطقين بها .

والواقع لقد بحث المشاركون في مؤتمر اللسانيات التطبيقية الرابع هذه الظاهرة في اللغات البشرية والاستفادة من نتائجها واسقاطها على حقل تعليم اللغات القومية والاجنبية . لقد كشفت اللسانيات الحديثة بأن هدف معلم اللغة المكتوبة ينبغي أن يكون تنشيط القدرة اللغويـة (Competence) عند المتعلم بحيث يمكن لهذه القدرة أن تنعكس بشكل جوهري وبسيط في اللغة المكتوبة وتجعلها حيوية وفعالة . وهذا بالطبع يطرح قضية ايجاد أساليب وتقنيات جديدة لتعليم الكتابة والانشاء في اللغـات الاجنبيـة مستندة الى المهـارات المتعلقـة باللغـة المنطوقـة واستراتيجياتها . لذلك لا بد من وضع نظـام واضح يدرس الظواهر الفونولوجية النطقية للغة الاجنبية وذلك لتمكين الطلبة ذوي المهارات النطقية والكلامية لان يحسنوا ويطوروا مهاراتهم الكتابية . مستفيدين بذلك من استعداداتهم الشفهية النطقية .

والواقع ان الكتب والنصوص المدرسية لتعليم اللغات الاجنبية لغير الناطقين بها قد استفادت من هذه الحقيقة واستخدمت تمارين شفوية ملائمة ومناسبة لكي تحسن من عملية الاداء اللغوي وتطوره تطويرا ينعكس على اللغة المكتوبة . فمن الواضح ان العملية الكتابية تتطلب انشاء لغويا معقدا من الناحية النحوية والدلالية اكثر من العملية المنطوقة التي تعتمد على الارتفاع الصوتي والنبرة الصوتية والنغمة الصوتية .

ان اهم الفروق التي تميز اللغة المنطوقة عن اللغة المكتوبة كان قد أوجزها عالم اللسانيات الروسي موسكوفيتشي بما يلي :

١ ـ الطاقات العضلية المبذولة خلال اللغة المكتوبة هي طاقات اهم من تلك المبذولة خلال اللغة المنطوقة .

٢ ـ تقتضي التبادلات الشفهية (اللغة المنطوقة) وجود شخص آخر في حين تتوجه التبادلات الكتابية (اللغة المكتوبة) الى شخص غائب لذا فان الاشارات الحركية وايحاءات الوجه التي تستخدم في الحالة الاولى هي اشارات وايحاءات غير قابلة لان تستخدم في الحالة الثانية .

٣ ـ الارسال الشفهي (في اللغة المنطوقة) ارسال متواتر ، مألوف ومستمر ، اما الارسال الكتابي (في اللغة المكتوبة) فنادر متقطع اذ تقتضي الكتابة تعمدا اكبر للقيام بها وجهودا اعظم للتكيف على موقف مقيد نسبيا .

٤ ـ يضفي على كل موقف ارسال (في اللغة المنطوقة او اللغة المكتوبة) معنى اجتماعي خاص يوجه بدوره سلوك القائمين بالارسال او التلقي . فالقيمة الاجتماعية التي تضفى على التعبير الكتابي غير المألوف عموما معصم على صورة خصائص مميزة للرسائل الناتجة عن هذا النمط من التعبير وهذه القيمة هي قيد مفروض على المرسل في توجيه سلوكه »(٥) وهكذا فان العلاقة بين اللغة المنطوقة وبين اللغة المكتوبة يمكن ان تفهم من خلال رصد المكونات الصوتية التي ترافقها موجات نفسية واجتماعية ثم رصد المكونات الكتابية التي ترافقها موجات اسلوبية وبلاغية .

وبهذا يمكن للمتعلم ان يحسن ويطور العملية الكتابية من خلال استغلاله للمكونات الموجودة في اللغة المنطوقة . والواقع ان اللغة المكتوبة تشكل عقبة وعثرة كاداء امام المتعلمين الذين يريدون تعلم الكتابة والانشاء

(٥) انظر : المسدي ، د. عبد السلام (١٩٨٤ : ص ٦٨ ـ ٦٩) . اللسانيات من خلال النصوص . طبعة الدار التونسية للنشر . تونس .

باللغة الاجنبية . وهذا بالطبع له مسوغاته وأسبابه المتعلقة بعوامل عديدة كان قد شرحها الباحث الدكتور نايف خرما عندما تحدث عن الصعوبات الكتابية والانشائية في اللغات الاجنبية والمتمثلة في الموضوع الذي القاه في المؤتمر(٦) .

فمعظم الدراسات التي تناولت الصعوبات التي يواجهها الطلاب العرب عند كتابتهم للانشاء باللغات الانكليزية حسب رايه انما كانت تنحصر **في مستوى الكلمة والجملة** . والواقع تفيدنا تقنيات البحث في اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة بانه ينبغي ان نتطلع الى المشكلة **في المستوى البلاغي (الخطابي)** . اي **مستوى ما بعد الجملة** . (علاقة الكلام بالنواحي النفسية والاجتماعية والثقافية والاسلوبية البلاغية) . وهكذا ينبغي علينا ان نعرف الصفات والمميزات البلاغية العربية التي تختلف عن الصفات والمميزات البلاغية في اللغات الاجنبية ونحللها . ثم ينبغي علينا أن نعرف التأثيرات العربية على كتابة الطالب العربي للغات الاجنبية ثم ما هو موقف الانسان المتعلم الكاتب من هذه المسألة . وهكذا ينبغي على المحلل ان يحدد الصعوبات المتولدة من كتابة الانشاء باللغة الانكليزية وانواع هذه الصعوبات والاخطاء التي يرتكبها وخاصة في مستوى التعليم الجامعي . وبعد كشف هذه الصعوبات وتحليلها ينبغي وضع عدة مقترحات لتطوير كتابة الانشاء في المرحلة ما قبل الجامعية والمرحلة الجامعية .

والواقع ان للغة القومية عوامل كثيرة تؤثر على نمو كبير في تعليم

(٦) لمزيد من الاطلاع على الموضوع راجع (بالانكليزية) :

الكتابة وتعلمها باللغات الاجنبية(٧) . صحيح أن القواعد والكلمات همـا أساس بناء الكتابة في اللغات الاجنبية الا ان المتعلمين لا يملكون القدرة على الكتابة وبالتالي السيطرة على استراتيجياتها باللغات . ان امتلاك المتعلمين القدرة اللغوية على الكتابة باللغة الاجنبية سيكون من خلال تعلمهم للقواعد والتراكيب والمفردات اللغوية فقط . ولكن كتاباتهم هذه ستكون غريبة وليست طبيعية وحيوية بحيث يمكنها ان تمثل الجانب الاسلوبي والبلاغي المرتكز على عادات وتقاليد ثقافية معينة يأخـذ بها متكلمو تلك اللغات الاجنبية . ان مصدر هذه المشكلات والصعوبات المتعلقة بالكتابة الاجنبية هو الاستراتيجيات المستخدمة في عمليـة الخطاب والتواصل الشفهي والكتابي باللغة القوميـة . والواقع ينبغي على المحلل استقصاء هـذه الاستراتيجيات اللغوية الموجودة في اللغة القومية وحصرنتها بدقة وتبيان تاثيراتها المختلفة على المتعلمين العرب الذين يتعلمون الانكليزية ولا سيما الوجه الكتابي الانشائي منها .

لقد أثبتت الدراسات اللسانية بأن هناك بعض اللغات التي تنضج حتى في مستواها الكتابي من الموروث التقليدي الشفهي المتداول (اي انها تعكس بعض الصفات اللغوية المنطوقة على اللغة المكتوبة) . أما لغات أخرى فانها تنضج من الموروث الكتابي المتداول (اى ان للكتابة اسلوبها وللكلام الشفهي أسلوبه) .

---

(٧) لقد كنت أوضحت هذه العوامل بالتفصيل من خلال تطبيق المنهج اللساني ـ الاجتماعي الدلالي الذي وضعه عالم اللسانيات الامريكي والس تشيف وطورته اللسانية الاميركية ديبوراتانن ... على اللغة العربية بوجهيها المنطوق والمكتوب . وقد قدم هذا البحث (بالانكليزية) في المائدة المستديرة التي نظمتها جامعة جورجتاون ـ قسم اللسانيات عام ١٩٨٠ .

وهذا يعني بأنه ينبغي على الباحث تحديد الطرق الدقيقة التي من خلالها يمكن للاستراتيجيات الخطابيـة في العربية ان تظهر في كتابات الطلاب العرب للغات الاجنبية . وينبغي عليه ان ينظر الى المشكلة من خلال ما يلي :

١ ــ انسجام الكتابة وتلاحمها (اي تنظيم التراكيب) .

٢ ــ الترابط الدلالي والنحوي في الكتابة (اي اظهار العلاقات بـين العناصر اللغوية وافرازاتها الدلالية) .

٣ ــ اتقان القيم الاجتماعية والاسلوبية للكتابة .

٤ ــ معرفة الوسائل الشكلية الكتابـة مثل النقط ، والفواصل ، المقطع ونهايته الخ . . .

ان معرفة اولويات الخطاب تقترح بأنه ينبغي علينا ان ننظم المواد الكتابية ونقدمها ضمن سياقاتها الاستراتيجية والاجتماعية . والواقع ان للكتابة عدة مستويات اسلوبية وبلاغية وكل مستوى من هذه المستويات له مضامينه ومعانيه وقيمه الاجتماعية . وهذا يطرح قضية مهمة في حقل تعليم الانشاء والكتابة باللغات الاجنبية وهي قضية الاسلوب .

لقد حظيت الدراسات الاسلوبية ببحث عميق ولا سيما في الوقت الحاضر فالمتعلمون الاجانب عندما يريدون تعلم الانشاء باللغة الاجنبية فانهم سيصطدمون بكل هذه المستويات المختلفة للكتابة الانشائية .

ان تحليلا لسانيا لكتاباتهم سيكشف لنا انواعا عديدة من الاخطاء الاسلوبية التي هي نتيجة لعوامل مختلفة منها :

١ ــ عوامل لغوية في مستوى الجملة . وهذه ناتجة عن تداخل القواعد والكلمات والعناصر الاسلوبية بين اللغة القومية واللغة الاجنبية .

٢ ــ عوامل لغوية في مستوى ما فوق الجملة . اي مستوى الاسلوب والبلاغة الناتج عن استخدام منطق اللغة القومية والثقافات والخلفيات التي يحملها ذلك المنطق وادخاله في منطق اللغة الاجنبية وهكذا فان الكتابة الاجنبية ستأتي غريبة وغير ممثلة للغة الاجنبية .

٣ ــ عوامل بيداغوجية ــ تربوية متعلقة بكيفية تعليم اللغات الاجنبية في المدارس .

لقد ركز المتخصصون في حقل تعليم اللغات الاجنبية على تعليم الكتابة في مستوى الجملة فقط في العقدين الفائتين ولكن الدراسات اللسانية التطبيقية الحديثة بدأت تراعي مستوى ما فوق الجملة اي المستوى الاسلوبي والبلاغي والاجتماعي .

والواقع ينبغي على المحلل ان يبين هذه الصعوبات الاسلوبية والبلاغية والاجتماعية التي يتعرض لها الطلاب العرب عند تعلمهم للغات الاجنبية . وينبغي بالاضافة الى ذلك مقارنة اللغة العربية باللغات الاجنبية من اجل معرفة المكونات الكتابية في كل لغة من هذه اللغات .

ان هدف الباحث الرئيسي في مجال تعليم اللغات الاجنبية هو امتحان الفرضية التي تقول بأن الضعف في المهارات الكتابية في اللغة الاجنبية يرجع الى ضعف الاستعدادات الكتابية في اللغة القومية . وهذا يعني بأنه ينبغي علينا في حقل تعليم اللغات الاجنبية تحديد استراتيجيات الخطاب والتواصل في كل لغة من لغات العالم سواء اكان ذلك في المستوى المنطوق ام في المستوى المكتوب ، وذلك لتطوير العملية التعليمية للغات الاجنبيـة .

والواقع هناك اهتمام متزايد في السنوات الحالية للبحث عن استراتيجيات الخطاب الموظفة من قبل المتعلمين عندما يريدون تبليغ الخطاب باللغات الاجنبية .

وهكذا ينبغي علينا ان نشرح استعمال استراتيجيات الاتصال من خلال امتحان الطلاب العرب الذين يتعلمون اللغات الاجنبية وذلك لكشف ما اذا كانت هناك علاقة بين استخدام أنواع معينة لاستراتيجيات الاتصال وبين القدرة اللغوية (Competence) للطلاب المتعلمين . وباختصار : هناك اختلافات كثيرة بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة . فكل لغة من هاتين اللغتين لها استراتيجياتها الاتصالية .

انه ينبغي علينا في حقل تعليم اللغات الاجنبية ان نبين هذه الاستراتيجيات ونكشفها ونركز بالتالي على الجانب الاسلوبي والبلاغي والاجتماعي للغة المنطوقة وندخله في مكونات اللغة المكتوبة لكي تتحرر هذه الاخيرة من قيود الشكلية والجمود وبالتالي تصبح العملية الكتابية والانشائية عملية حيوية يتقنها المتعلمون الاجانب بطريقة سهلة وبسيطة وفعالة .

٤ ــ البنية الصوتية والنحوية والدلالية للغة القومية واللغات الاجنبية في سياق تعليمها وتعلمها

لاشك بأن معرفة البنى النظامية لحركية الاصوات والتراكيب والدلالات في اللغات الاجنبية المراد تعليمها لغير الناطقين بها امر ضروري، وهذا يفرض على الباحث استقصاء البنى النظامية لحركية الاصوات والتراكيب والدلالات في اللغات القومية ايضا وذلك لمعرفة التشابهات والاختلافات بين اللغة الاجنبية المراد تعليمها وبين اللغة القومية .

ففي المستوى الصوتي ينبغي علينا الانطلاق من القاعدة الصوتية الفيزيولوجية التي يشترك فيها جميع الناس الذين يتكلمون اللغات البشرية . فكل الناس تنتج الكلام من خلال الجهاز النطقي الفيزيولوجي. هذا الجهاز قادر على صياغة الاصوات البشرية انطلاقا من أقصى الى بداية الفم معطية الاصوات صفاتها الفيزيولوجية والفيزيائية والسمعية الدماغية التي تشترك فيها جميع اللغات العالمية .

ان الفرق الوحيد الذي يميز اصوات لغة عن اصوات لغة اخرى يكمن في انسجام هذه الاصوات واندماجها مع بعضها بعضا بحيث تكون مقبولة بالنسبة للانسان الناطق بها . وهكذا فان مهمة الباحث في حقل تعليم اللغات الاجنبية معرفة النظام الصوتي للغة القومية والنظام الصوتي للغة الاجنبية . وبذلك يستطيع أن يعرف الاصوات المشتركة بين هذين النظامين والاصوات المختلفة فيهما . والاهم من هذا وذاك معرفة انسجام الاصوات واندماجها مع بعضها بعضا في اللغة القومية واللغة الاجنبية .

فاذا استطاع الباحث سبر النظام الصوتي سبرا يمكنه من فرز المتشابهات والاختلافات الصوتية بين اللغتين القومية والاجنبية فانه يمكن له بعدها أن يضع منهجا واضحا وسهلا يتم من خلاله الانطلاق او وضع المواد اللغوية الاجنبية للطلاب غير الناطقين بها .

هذا الوضع اللغوي سيعتمد على الدراسات الصوتية المقارنة بين اللغتين وذلك لاختيار نصوص لغوية ملائمة ومناسبة للطلبة ثم لاختيار المفردات والكلمات الشائعة والمألوفة والتي لاتشكل صعوبة امام الطلبة عند نطقهم بها .

فاذا أردنا مثلا تعليم اللغة الانكليزية للطلاب العرب فان علينا في هذه الحالة أن نبتعد عن الظواهر الصوتية التي تنفرد بها اللغة الانكليزية كالنبر الصوتي (Stress) والنفخة الصوتية (Intonation) والتقاء الساكنين (Pause) وما اشبه ذلك . تلك الظواهر المفقودة من اللغة العربية .

هذه الظواهر يمكن تقديمها للطالب العربي في مراحل متأخرة وذلك عندما يتقن تماما الظواهر الصوتية المشتركة بين الانكليزية والعربية .

والواقع لقد شرح المشاركون في المؤتمر هذه القضايا وحللوا بعض الظواهر الصوتية في اللغة القومية واللغات الاجنبية . ان دراسة الباحث الدكتور عبد الرفيع بن حلام رئيس قسم اللغة الانكليزية بجامعة الرباط ــ المغرب لبنية المقطع الصوتي في اللغة العربية انما كانت دراسة جادة حاولت سبر نظامية المقاطع الصوتية وعملها واستنتاج القواعد الصوتية التي تتم من خلالها عملية انتاج هذه المقاطع .

وقد حاول الباحث الدكتور الجلالي سايب استاذ الصوتيات بجامعة الرباط ــ المغرب تأييد النتائج التي توصل اليها الباحث الدكتور ابن حلام وذلك من خلال تطبيق المنهج الصوتي المقطعي الامريكي الذي وضعه عالم الصوتيات الامريكي موريس هالي (M. Halle) على المقاطع العربية الصوتية .

ان هاتين الدراستين كانتا ضمن اطار مقارنة اللغة العربية باللغة الانكليزية وذلك لامتحان مدى شرعية النموذج الصوتي العروضي الامريكي ومدى فعاليته لوصف البنى الصوتية وشرحها وتعليلها ثم تقديمها في مجال تعليم اللغات الاجنبية لغير الناطقين بها .

ولكن الذي لفت النظر في المؤتمر هو انه في الوقت الذي كنا نشاهد فيه دراسات صوتية جدية حاول اصحابها الاستفادة من النظريات الصوتية الحديثة من اجل تطبيقها على اللغة العربية القومية واللغات الاجنبية فاننا كنا نرى بأن هناك دراسات هشة حاول اصحابها تطبيق المناهج الصوتية الحديثة على بعض اللهجات العربية المعاصرة كما كان الشأن في الدراسة الصوتية للهجة العمانية التي قدمها الدكتور قاسم شعبان . والواقع اننا لانعني من كلامنا هذا باننا لسنا مع الدراسات اللسانية المطبقة على اللهجات العربية المعاصرة صوتيا ونحويا ودلاليا .

ولكن اعتراضنا هو ان مثل هذه الدراسات الصوتية هي دراسات وصفية فقط اي ان الدكتور شعبان اكتفى بتطبيق القواعد الصوتية

الحديثة التي هي نتاج المنهج الصوتي التوليدي الحديث على المواد الصوتية العمانية ، دون ان يستغل النتائج التي توصل اليها ويربطها بالمواد اللغوية العربية الفصيحة .

ان الدراسات اللسانية الصوتية المطبقة على اللهجات العربية المعاصرة ينبغي ان تستفيد من النتائج التي تتوصل اليها ثم تسقطها على اللغة العربية الفصحى وذلك لمعرفة بنيتها وتقديمها كلغة حية لغير الناطقين بها ، ثم لوضع مواد صوتية متعلقة باللغات الاجنبية للطلاب العرب مستندة الى الحقائق الصوتية العربية .

وينطبق الشيء نفسه على الدراسة التي قدمها الدكتور يوسف بدر عن بنية المقطع الصوتي الصائت في اللغة البربرية . فهذه الدراسة كانت دراسة وصفية فقط ولم تكن دراسة براغماتية نفعية يمكن اسقاط نتائجها على الواقع اللغوي العربي الراهن . والا لو كان الهدف هو الوصف الصوتي لواقع لغوي معين لامكننا ان نصف مواد لغوية لهجية متنوعة متفرعة عن العربية الفصحى وبذلك لايخدم عملنا في هذه الحالة اللغة العربية القومية .

ان اية دراسة صوتية لاية لغة او لهجة متفرعة عنها ينبغي ان تراعي النتائج البراغماتية النفعية التي ينبغي ان تسقط على اللغة العربية القومية وذلك لتطويرها وتطويعها وجعلها لغة سهلة واضحة امام الطلاب غير الناطقين بها .

اما في المستوى النحوي ـ التركيبي ، فان المشاركين في المؤتمر قدموا دراسات نافعة وجدية حول التراكيب في اللغة العربية ومقابلاتها في اللغات الاجنبية . والواقع ان معرفة المركبات اللغوية التي يتألف منها التركيب اللغوي ليشكل بعدها جملة مفهومة اساسية أم مشتقة امر مهم ايضا وذلك لمعرفة ما هو مشترك وما هو مختلف بين اللغة القومية واللغة الاجنبية . أضف الى ذلك ان رتبة هذه المركبات اللغوية في

الجملة والتي بدورها تفرز دلالات مختلفة امر ضروري ايضا . فمعرفة البنية النحويـة ـ التركيبية ومعرفة البنية الدلالية التي تفرزها اللغة القومية واللغة الاجنبية سيسهل علينا كشف الصعوبات التي يواجهها متعلمو اللغات الاجنبية وبالتالي وضع الحلول المناسبة لمعالجتها .

وقد كنت أوضحت في مكان اخر (٨) بأن هناك تشابهات كثيرة بين البنية النحويـة للتركيب في اللغة العربية وبين البنية النحوية للتركيب في اللغة الانكليزيـة . فالتركيب الاساسي في اللغة الانكليزيـة هو تركيب ذو طبيعة :

فاعل ـ فعل ـ مفعول بـه ـــــــــــ، John Killed Bill .
هذه الرتبة الاساسية للعناصر اللغوية في هـذه اللغة هي رتبة ثـابتة تقريبا (Fixed) . فاذا كان لابد من تحريك بعض العناصر اللغوية من أجل الإهتمام والعناية والقصد فانـه يمكن تحريك المفعول بـه أو الجار والمجرور الى بداية التركيب ووضعه في المستوى اللساني ـ بؤرة او مبتدأ (Topic) . وهكذا فان التراكيب التالية هي صحيحة:

---

(٨) لمزيد من الاطلاع على البنية النحويـة والدلالية للتراكيب العربية والتـراكيب الانكليزيـة راجع (بالانكليزيـة) الفصل الخامس من النسخة الاصلية لرسالـة الدكتوراه التي كان قدمها صاحب هـذه السطور صيف عـام ١٩٨٣ الـى قسم اللسـانيات في جامعة جورجتاون في الولايات المتحدة الامريكية تحت عنوان :

Al - Waer Mazen (1983) Toward a modern and realistic Sentential Theory of Basic Structures in Standard Arabic . Ph. D. dissertation . Georgetown University Washington D . C U . S . A .

وقد كنت نشرت خلاصة عن هذه الرسالة (بالعربية) في مجلة المعرفـة الصادرة عن وزارة الثقافـة والارشاد القومي في القطر العـربي السوري العـدد ٢٦٦ للسنة ١٩٨٤ .

مفعول بـه ـ فاعل ـ فعل ←ـــــ . Bill , John . Killed

(It is Bill that John Killed)

جار ومجرور ـ فاعل ـ فعل ←ـــــ

In France I enjoyed myself .

هذا بالنسبة للتركيب الاسمي ـ الفعلي الاساسي . اما بالنسبة للتركيب الكوني فانـه ذو طبيعة :

فاعل ـ فعل الكون ـ { اسم / جار ومجرور / ظرف / صفة }

هذه الرتبة اللغوية للتركيب الكونى هى رتبة ثانية لاتسمح بتحريك أي عنصر لغوي الى بداية التركيب . من هنا فان الجمل المتمثلة في (أ) هي نحوية صحيحة ولكن الجمل المتمثلة في (ب) ليست كذلك :

(1) a - John is a student .

b* - a student John is .

(2) a. Johu is in the garden.

b. * in the garden John is.

(3) a. The fighting is today .

b. * Today the fighting is .

(4) a. John is sad .

b. * Sad John is .

وهذا بالطبع يختلف عن طبيعة التركيب الكوني في اللغة العربية . صحيح أن الرتبة الاساسية للتركيب الكوني العربي في بنيته العميقة تشبه الرتبة الاساسية للتركيب الكوني الانكليزي في بنيته العميقة والسطحية الا أن عملية التقديم والتأخير في العناصر اللغوية تختلف في اللغتين . وهكذا فان التراكيب العربية المتمثلة في (أ) و (ب) صحيحة:

(١) زيد (يكون هو) طالب .

ب . طالب زيـد .

(٢) زيد في الحديقة .

ب . في الحديقة زيـد .

(٣) القتال اليوم .

ب . اليوم القتال .

(٤) زيـد حزين .

ب . حزين زيـد .

هذا بالنسبة للتركيب الكوني اما التركيب الاساسي في اللغة العربية فـانـه على انـواع ثـلاثـة :

(١) التركيب الفعلي .

فعل ــ فاعل ــ مفعول بـه ←ـــــ بلع الرجل البيضة وقشرتها .

(٢) التركيب الاسـمي ذو الخبر الفعلي .

مبتدا ــ فعل ــ مفعول به ــ فاعل ←ـــــ البيضة بلعها الرجل.

(٣) التركيب الاسمي ذو الخبر الاسمي .

مبتدا ــ مبتدا ــ خبر ←ـــــ الولد ابـوه قوي .

مبتدا ــ مبتدا ــ جملة ←ـــــ الولد ابوه بلع البيضة وقشرتها .

والواقع ان رتبة التركيب العربي هي رتبة مرنة بحيـث يمكـن لنا تحريك كل العناصر اللغوية التي هي ليست **فعلا** أو **فاعلا** الى المكان الذي نختاره ولكن ضمن ضوابط نحويـة ودلالية معينة . وهكذا فان التراكيب التالية هي صحيحة :

الرجل بلع | البيضة وقشرتها |

ب . الولد | أبوه قوي |

ج . الولد | أبـوه بلـع البيضة وقشرتها |

وقد كنت أوضحت في الموضوع الذي قدمته في المؤتمر (٩) بـأن تحليل العرب القدماء للتراكيب لايختلف كبير اختـلاف عـن التحليـل اللسـاني الحديث ولكن شريطة أن نفهم بعمق البحث اللساني الكلي عند العرب القدماء . فقد حللوا التراكيب العربية طبقا (١) لطبيعة عناصرها الاولية (٢) ولطبيعة كبرها وصغرها (٣) ولطبيعة الدور الوظيفي الـذي تقوم بـه . وهكذا فقد حددوا للعربية أربعة تراكيب هي :

(١) التركيب الفعلي ــــــ جاءت مي .

(٢) التركيب الاسمي ــــــ مي جاءت .

(٣) التركيب الظرفي ــــــ أبالي في الحديقة ــ الاحتفال اليوم .

(٤) التركيب الشرطي ــــــ ان تدرس تنجح .

وقد نظر العرب القدماء الى الكلام ما اذا كان كبيرا او صغيرا أي:

(١) جملة صغرى ــــــ أبوه شاعر ــ يكتب زيد شعرا .

(٢) جملة كبرى ــــــ زيد أبوه شاعر ــ زيد أبوه يكتب شعرا.

---

(٩) لمزيد من الاطلاع على الموضوع الذي قدمه صاحب هذه السطور في المؤتمر اللساني التطبيقي راجع (بالانكليزية) :

Al-Waer, Mazen (1985). " Arabic Sentential theory in the light of Modern Linguistics "

A paper presented at the Fourth Annual linguistcs Confernce. Yarmouk University. 2 - 4 April 1985 .

بالاضافة الى ذلك فقد درسوا الدور الدلالي للجملة (اي محلها من الاعراب) والدور الدلالي للكلمة (اي اعرابها بالضم والفتح والكسر).

وقد كانوا اقترحوا بأن التركيب العربي الاساسي يتالف من ثلاثة اركان لغويــة :

(١) المسند اي خبر الجملة .

(٢) المسند اليه اي فاعل الجملة او المبتدأ .

(٣) الفضلة اي كل ماعدا المسند والمسند اليه .

تدعى العلاقــة التي تــربط بين هــذه الاركان اللغويــة بالاسناد ويمكن لعنصر الفضلة داخل العلاقة الاسناديــة ان يتقــدم المسند أو المسند اليه . وبتقديمه وتأخيره فان التراكيب سيفرز دلالات مختلفة . وقد اقترح العرب القدماء نوعين من التقديم :

(١) تقديم على نية التاخير ـــــــ زيدا ضربسالم ـ ضربزيدا سالم

(٢) تقديم لا على نية التاخير ـــــــ زيد ضربه سالم .

والواقع ان معرفة التحليلات اللغوية الحديثة والقديمة للتراكيب العربية والاجنبية ستساعدنا على اكتشاف عمل هذه التراكيب ذلـك العمل الذي يمكن ان يكون عملا متشابها في آليتة وحركيته في اللغـات البشرية . وهذا سيسـهل علينا وضع تقنيات بيداغوجية ـ تربوية مبنية على هذا الاكتشاف . فاذا كان علينا ان نعرف القواعد المحددة التي هي قادرة على توليد التراكيب الاساسية في اللغة القومية واللغـات الاجنبية فانه ينبغي علينا ان نعرف الضوابط النحوية والدلالية التي تنظم هـذه القواعـد من اجل ان تولد تراكيب صحيحة . وهكذا فان تقديم المفعول به وتأخيره في التراكيب المتمثلة في (ب) سيولد جملا غير صحيحة :

(١) آ ـ ضرب موسى عيسى .

ب ـ عيسى ضرب موسى .

(٢) آ ـ ادهشه نجاح زيد .

ب ـ ادهش نجاح زيد به .

وهكذا فان عملية التقديم والتاخير للعناصر اللغوية ينبغي ان تخضع لضوابط نحوية ودلالية ، تجعلها مقبولة نحويا ودلاليا . والواقع ان اكتشاف قواعد اية لغة وضوابطها لا يمكن ان يتم الا مـن خـلال نظرية لسـانية وصفية وتحليلية .

لقد ناقش المشاركون في المؤتمر عدة نظريات لسـانية لمقارنة القواعد اللغوية وضوابطها في اللغة القومية واللغات الاجنبية وفحصها ضمن سياق النحو الكلي المقترح في نظرية القواعد التوليدية والتحويلية .

وأخيرا لا بد من معرفة البنية الدلالية في اللغـة القومية واللغـات الاجنبية لان هذه المعرفة ستسـاعد المتخصصين في حقل تعليم اللغات الاجنبية من معرفة طبيعة الدلالات والمعاني العاملة في الدماغ البشري . ذلك لان الواقع الفيزيائي الدلالي المحيط بالانسان انما هو واقع واحد ولكن اللغات البشرية تختلف في طريقة تقطيع هذا الواقع الفيزيائي . من هنا كان الاختلاف النحوي والصوتي بالرغم من تماثل البنية الدلالية . ولكن التوصل الى هذه الحقائق لا يمكن ان يتم الا من خلال نظريةدلالية قادرة على كشفالعلائق الدلالية الموجودة في اللغات البشرية .

وقد تم في المؤتمر مناقشة النظرية الدلالية الاشتقاقية التي وضعها عالـم اللسـانيات الدلالي الامريكي غروبـر (١٩٦٥) وطورهـا عالـم اللسـانيات الدلاليالامريكي جاكندوف (١٩٧٦) . ولكن النظرية الدلالية الاكثر وصفية للتراكيب اللغويـة العالمية هي نظريـة النحـو الدلالي (Case Grammar) التي وضعها عالم اللسـانيات الامريكي تشارلز

فيلمور (١٩٦٨) وطورها عالم اللسانيات الامريكي ولتركوك (١٩٧٩) من خلال نموذجه المسمى « النموذج الدلالي التصنيفي » .

يتألف هذا النموذج من أدوار دلالية يفرزها الفعل اللغوي . وهذا يعني بأن الفعل اللغوي هو عامل دلالي يحكم عدد هذه الادوار الدلالية وانواعها التي تأتي مع الفعل . والواقع ان قائمة الصفات الدلالية التي يمكن أن تأتي مع الفعل وتصف حركته يجب أن تميز عن الادوار الدلالية التي تأتي مع الاسم .

فاذا اخذنا الجملة التالية مثالا على ذلك (ضرب زيد سالما) فاننا نستطيع ان نقول بأن صفة الفعل الدلالية هي صفة حركية (حركية الضرب) أو (+ حركي) ، وأن دور الاسم الدلالي (زيد) هو دور الفاعل او (+ فاعل) ودور الاسم الدلالي (خالدا) هو دور الموضوع أو (+ موضوع) .

وهكذا فان هذا النموذج الدلالي ينظر الى الفعل على انه عامل دلالي يحدد طبيعة الادوار التي تحدث معه .

ان الادوار الدلالية المقترحة في هذا النموذج هي :

(١) المنفذ (الفاعل) ←—— اكل **الولد** التفاحة .

(٢) الموضوع (المفعول به) ←—— ضرب زيد **سالما** .

(٣) المستفيد ←—— **لتابط شرا** جواد اصيل .

(٤) المجرب ←—— استمع **زيد** الى اغنية جميلة .

(٥) المكان ←—— ذهب الولد **الى المدرسة** .

اما الافعال المقترحة في هذا النموذج فهي :

(١) افعال كونية ←—— زيد طالب .

(٢) افعال اجرائية ←—— مات الرجل .

(٣) افعال حركية ←—— قتلت الزوجة بعلها .

(٤) أفعال شعورية .

آ ـ كونية ←── زيد فرح .
ب ـ اجرائية ←── يستمع زيد الى الموسيقى .
ج ـ حركية ←── ينشد زيد الشعر .

(٥) أفعال الاستفادة .

آ ـ كونية ←── لزيد في الحقل جواد يلعب .
ب ـ اجرائية ←── حصل الولد على الجائزة .
ج ـ حركية ←── اعطى زيد سالما هدية .

(٦) أفعال مكانية

آ ـ كونية ←── زيد في الجامعة .
ب ـ اجرائية ←── تحركت السيارة نحو الساحل .
ج ـ حركية ←── وضع زيد القلم على الطاولة.

يميز النموذج الدلالي التصنيفي بين نوعين اثنين من الادوار الدلالية:

الاول : الادوار الدلالية الظاهرية التي تحدث في البنية العميقة ويجب أن تكون دائما في البنية الظاهرية .

الثاني : الادوار الدلالية المستترة التي تحدث في البنية العميقة ولكن يمكن لها أن تحدث في البنية الظاهرية ويمكن الا تحدث فيها . هذه الادوار الدلالية المستترة لها انواع مختلفة . فاذا كان الدور الدلالي يظهر في البنية الظاهرية احيانا ولا يظهر في احايين اخرى فيدعى عندها « الدور الدلالي المحذوف » كما هو الحال في المثالين التاليين :

(١) اكل الطفل (شيئا ما) ←——— اكل الطفل ـ .

(٢) ان تدرس ليالي تنجح (ليالي) ←——— ان تدرس ليالي تنجح .

اما اذا لم يظهر الدور الدلالي في البنية الظاهرية مطلقا فعندها يمكن ان يكون اما متماثلا مع دور دلالي آخر مثل :

حمل زيد نفسه الى دمشق ←——— ذهب زيد الى دمشق
فاعل موضوع فاعل و موضوع

واما ان يكون من طبيعة الفعل الاشتقاقية نفسها مثل :

شجر زيد الارض ←——— زرع زيد **الشجر**

وهكذا يمكننا معرفة العلاقات الدلالية للتراكيب العربية والاجنبية من خلال تطبيق هذا النموذج على اية جملة عالمية . فاذا كان لدينا جملتان في العربية والانكليزية مثل :

The boy went ←——— ذهب الولد

فانه يمكننا ان نحلل هاتين الجملتين بنفس المعيار الدلالي كما يلي :

آ ـ **ذهب الولد من مكان الى مكان .**
حركي منفذ ابتداء الغاية انتهاء الغاية .

ب ـ ذهب (Z , Y , X) .

ج ـ ذهب (منفذ ، ابتداء الغاية ، انتهاء الغاية) .

فالعنصر اللغوي (X) هو منفذ الحدث وهو الذهاب . والعنصر اللغوي (Y) هو مكان ابتداء الغاية الذي انطلق منه المنفذ لتنفيذ

الحدث ، اما العنصر اللغوي (Z) فهو مكان انتهاء الغاية الذي وصل اليه المنفذ . وهكذا فان الادوار الدلالية (Z ، Y ، X) تتحدد من خلال العامل الدلالي الحركي أي الفعل **ذهب** [١٠] .

وهكذا فان هذه العلاقات الدلالية هي علاقات كلية شمولية ولكن طريقة التعامل معها ووضعها في قوالب لغوية تختلف من لغة الى لغة . فاذا كان العربي يعبر عن ذهاب احدهم الى المدرسة بوضع فعل الحدث اولا ثم منفذ الحدث ثانيا ثم المكان الذي يذهب اليه المنفذ ثالثا فان اللغة الكورية تعبر عن نفس العلاقات الدلالية بشكل نحوي مختلف معبرة عن منفذ الحدث اولا ثم المكان الذي سيذهب اليه المنفذ ثانيا ثم فعل الحدث ثالثا . وهكذا فان جملة كالتالي هي صحيحة في الكورية :

الولد الى المدرسة يذهب .

ان مثل هذه النظريات الدلالية قادرة على تحديد الطبيعة الدلالية للغات البشرية وهي قادرة على فرز البنى الظاهرية المختلفة من لغة الى لغة اخرى وتبيان الخط الدلالي المنطقي الذي يجمع بينها وذلك من خلال سبرها للبنى العميقة في اللغات البشرية .

والواقع لقد ركزت الدراسات اللغوية القديمة على الشكلية والهيكلية التي تشكل اللغات البشرية دون الالتفات الى الجوهر الدلالي الذي يحصل فيها . اما الدراسات اللغوية الحديثة فانها تركز على البنية

---

(١٠) لمزيد من الاطلاع على النموذج الدلالي التصنيفي وتطبيقه على الافعال العربية والانكليزية راجع مقالتنا (بالانكليزية) :

Al-Waer, Mazen (1983). " The Syntactic and Semantic Frame Structures of the verd SEE in Arabic and English : Case Grammar Approach . "

Al-Lisan Al-Arabi , No. 21, Issued by the Bureau of coordination of Arabization in Rabat-Morocco.

الدلالية الواحدة في الدماغ الانساني لمعرفة الافتراضات الموجودة عند الانسان والتي ليست هي كما يدل الشكل النحوي عليها .

فاذا اخذنا على سبيل المثال تركيب الاستفهام فاننا سنلاحظ بان بعض الجمل الاستفهامية في اللغات العالمية ليست استفهامية في دلالتها على الاطلاق اللهم الا في شكلها واستعمالها لادوات الاستفهام . أما بنيتها الدلالية العميقة فهي ليست استفهاما فعندما ترى ام طفلها قد سكب الماء على الارض وتقول له : (ماذا تفعل ؟) فانها لا تستفهم ابدا على الرغم من انها تستخدم صيغة الاستفهام نحويا . ان مثل هذه التحليلات الدلالية ستقدم لنا نتائج دقيقة يمكن اسقاطها على بيداغوجيات تعليم اللغات الاجنبية وتقنياتها الناجعة .

فياليت المتخصصين في حقل تعليم اللغات الاجنبية لغير الناطقين بها ، يلتفتون الى اللغة العربية القومية لدراستها دراسة دلالية وصياغة مناهج تعليمية بيداغوجية – تربوية لكي نسهل من طرائق تعليمها للاجانب لتصبح لغة حيوية عالمية تدخل مجال العلم والتكنولوجيا والحضارة المعاصرة .

٥ – نتائج ورؤية مستقبلية :

الواقع ان فكرة المؤتمر اللساني التطبيقي هي فكرة طيبة وخيرة ذلك لان هدفها معرفة كل ما هو مطروح من نظريات ومناهج في حقل اللسانيات التطبيقية واسقاط هذه النظريات والمناهج على حقل تعليم اللغات الاجنبية لغير الناطقين بها . ذلك انه لا يمكن لاية نظرية او منهج لساني ان يثبت شرعيته وتطبيقيته وواقعيته بل صحته الا من خلال اسقاطه على واقع لغوي معين . اضف الى ذلك انه لا يمكن ان نعرف اي واقع لغوي معين ونكشف حقيقته وحركيته الا من خلال نظرية لسانية معينة مثبتة علميا .

اذا هناك علاقة متفاعلة بين النظريات اللسانية التطبيقية وبين اللغات المطبقة عليها وذلك من اجل كشف الحقيقة اللغوية ومعرفة النتائج البراغماتية النفعية التي يمكن لها ان تخدم حقل تعليم اللغات الاجنبية لغير الناطقين بها .

والواقع لقد شهد المؤتمر اللساني التطبيقي الرابع عرضا رائعا لأهم النظريات والمناهج اللسانية المطروحة في علم اللسانيات التطبيقي كما شهد المؤتمر في الوقت نفسه الكثير من المواد اللغوية المقدمة في اطار منهج لساني معين .

هذه الحقيقة لا غبار عليها مطلقا . ولكن الفكرة التي كانت غائبة عن نشاطات المؤتمر هي ان معظم الباحثين في حقل تعليم اللغات الاجنبية لغير الناطقين بها كانوا قد ركزوا على الدرس العميق للمناهج اللسانية الحديثة وكيفية تطبيقها على اللغة الانكليزية وغيرها من اللغات الاجنبية الاخرى دون الالتفات الى اللغة العربية القومية

وهذا ان دل على شيء فانما يدل على اننا نحن العرب لا نولي العربية البحث العميق الكافي الذي يطورها ويجعلها لغة حضارية معاصرة يمكن لها أن تفرض وجودها في المحافل الدولية والجامعات والمعاهد الغربية .

ان الحقيقة العلمية هي انه لا يمكن ان ندرس نحن العرب اللغات الاجنبية مطبقين عليها مختلف النظريات والمناهج اللسانية الحديثة الا ضمن اطار اللغة العربية القومية ذلك انه ينبغي أن يكون هناك هذه العلاقة الديناميةالفاعلة والمتفعلة بين النتائج التي يمكن التوصل اليها عند دراسة اللغات الاجنبية لغير الناطقين بها وبين النتائج التي يمكن التوصل اليها عند دراسة اللغة العربية القومية .

انه لا انتعاش للغات الاجنبية في الوطن العربي ما لم تخدم اغراض اللغة العربية وشعوبها المتطلعة الى عالم افضل وحضارة احدث مما هم

عليه . وبالتالي لا يمكن تطوير اللغة العربية الى المستوى العلمي التكنولوجي الحضاري المعاصر ما لم تستفد من تقنيات علم اللسانيات التطبيقي وكيفية تطبيقه على اللغات الاجنبية .

انطلاقا من هذه الحقيقة اقترح بأنه ينبغي ان يكون في المؤتمرات القادمة هذا التوازن اللغوي الاستراتيجي بين البحوث المتعلقة بتعليم اللغات الاجنبية لغير الناطقين بها وبين البحوث المتعلقة بتعليم اللغة العربية القومية للناطقين بها .

فاذا لم يكن ذلك كذلك فكاننا نسقط لغات اجنبية متطورة تقنيا وبيداغوجيا وتربويا وثقافيا على واقع لغوي عربي متخلف . وبهذا فان المعادلة الثقافية العلمية الحضارية بين الامم ستكون معادلة غير متكافئة وستؤدي في نهاية المطاف الى التسلط الحضاري والاسقاط الثقافي المستورد .

على ايه حال ، لقد ابدى المشاركون في المؤتمر تحمسهم الى هذه الحقيقة الجوهرية التي كنت قد اكدت عليها اثناء شرحي للموضوع الذي قدمته في المؤتمر وقد حملت مسؤولية تحقيقها الى الزملاء الذين يعملون في اقسام اللغات الانكليزية وادابها في الوطن العربي .

والواقع ان مؤتمر اللسانيات التطبيقية الرابع يعد من المؤتمرات والتجمعات الهامة في الوطن العربيوذلك لانه يعتبر النواة الاساسيةالتي سينطلق منها اللسانيون العرب لانشاء تجمعهم واتحادهم الذي سيعتبر الخطوة الاساسية في بناء الثقافة اللسانية الحديثة .

وهذا ان دل على شيء فانما يدل على حيوية المتخصصين اللسانيين الشباب في جامعة اليرموك وغيرها من الجامعات العربية والذين بجهودهم الطيبة والخيرة سيتم بناء صرح هذه الثقافة اللسانية في السنوات المقبلة .

★ ★ ★

أدب

شعر:

نشيد لسيدة الدفء العالي

محمد عمران

قصة:

الدليل

محمد زفزاف
"المغرب"

الشطر الآخر من المدينة

علي عبد العال
"العراق"

شعر

نشيد
لسيّدة الدفء العالي

محمد عمران

ينبغي ان اعيدَ الدموعَ التي هاجرت في النهار الى بيتها المخمليْ

ينبغي ان اعيد السواقي الى نبعها ،

والجذورَ الى دفء تربتها

مطرٌ ،

والمساءْ

يرتدي معطف الريح ،

والفصلُ قبل الشتاءْ

ينبغي أن أنادي دمي المتشردَ في الطرقاتِ ،

فقد صار وقتُ العشاءْ

آخر الشمس هذي التي انزلقتْ . .

تنبغي ، الآن ، مدفأةٌ ، ونبيذٌ ، وكأسٌ لغائبةٍ ،

وصديقٌ ابادلُه الكلماتْ

ينبغي ، الآن ، حزنٌ جميلْ

شوكةٌ عذبة الوخز في القلب ،

لؤلؤةٌ من مرايا ،

وطقسٌ لأغنيةٍ ،

وصلاةٌ لما غيبته الفصولْ

ينبغي ، الآن ، شربٌ جميلْ

وطنٌ من نبيذ انزهه في دمي ،

وينزهني في مرايا الذهولْ

نتخاصر طفلين ، او عاشقين ، على كوكبٍ ونبيْ

ينبغي ، الآن ، سكرٌ يوسدني عشبه الأبويْ

ويدا خدرٍ تحملان سريري الى الدفء ،

سنبلتان آلرجح زندبهما ،

قمران بمروحتين ،

وهدهدةٌ لأنامْ

ينبغي ، الآن ، حلمٌ ...

قصائدُ ماءٍ على افقٍ من غمامْ

ومناديلُ اجنحةٍ ،

ومزاميرُ زرقٌ ،

ونهرٌ من الشجر المتوسد شعر الغمامْ

ينبغي ، الآن ، حلمٌ ...

لمن شفةٌ تستحمٌ على النبعِ ،

تغسلُ بالألق القبلاتْ

ولمن جسدٌ ـ قبةٌ ،

وعناقيد جذلى ،

وفاكهةٌ تتدلى على الصلواتْ

ينبغي ، الآن ، حلمٌ ...

كان السماءُ

تلدُ المشتهى في يدي ،

وكان يدي

تتناول اسرارها ،

وكاني ابارك خبز الحياةْ

تنبضي ، الآن ، ذاكرةً للنبات الذي يتفتح في جسدي ،

للطيور باجناسها ،

للغاتِ الينابيعِ والصخرِ ،

للحرثِ والزرعِ ،

للتربة العاشقة٠

تنبضي ، الآن ، ذاكرةً للبحار الجديدة ،

ذاكرةً للصحارى الاليفةِ ،

ذاكرةً للسهولِ ،

وذاكرةً للجبالِ

وللمدنِ الباسقة٠

تنبضي ، الآن ، ذاكرةً تسعُ الكائنات٠

الزواحفَ ،

والنحلَ ،

والنملَ ،

والماشيه

ما يدب على الأرضِ ،

ما يتهادى على الجوِ

ذاكرةٌ للقبورِ ،

وذاكرةٌ للمهودِ ،

لمن يُولد الآنَ ، او يُقتلُ الآنَ ،

من يتذكرُ ،

يبكـي ،

يغنـي ،

يُصلي ،

ينـامْ

لمستوحشٍ ،

تخلّـيٌ ،

لطفلٍ بـلا حلمةٍ

لفتـىً مستهامْ

لشيـخٍ ،

لأمٍ تهز بجذع سريرٍ ،

لمن يصلُ الآن ،

او يرحلُ الآن ،

للخاطئينَ ،

وللخاطئاتِ ،

وللطيبينَ ،

وللطيبات

تنبغي ، الآن ، ذاكرةٌ تسعُ الكائنات

ياتون من كل الجهات الى دمي

مدناً ، واشجاراً ، واهلاً غائبينَ ، واصدقاء

وقرىً ، واسماءُ لها في القلب رائحةُ البكاء

أسماءُ امكنةٍ ،

أسماءُ ازمنةٍ ،

أسماءُ من أحببتهن من النساء

يتدافعون على دمي ، وانا

جسدٌ من الابواب والشرفاتِ

اشرعتُ ذاكرة الحنين لهم

وغسلتُ اعماقي من الظلماتِ

... هوذا المساءُ يجيءُ محتضناً مسافاتي

انبثقْ

يا كوكب الوجد المتقَ ، / لي فضاءٌ تفسل الاحزان

عينيــه ، ويلبسهُ الحنــين قميص زرقتــه / ولــي
قدمان من ريش واجنحةٍ / ولي شجرٌ على جسدي/
ولي افقٌ يراني
... هوذا المساء يجيءُ محتضناً مسافاتي /
يَعلقُ كوكبي
في قبــة الوقت المعلــقِ بــين حنجرتي وصوتــي /
فرسٌ تــرفُ على فمي ؟ فرسٌ .. وهــذا السرجُ
اخضــرُ / تلــك فاتحــة النشيــدِ / مُعلقــاً
قلبــي علــى راياتــه الخضــراء اخفــقُ في فضـــاءِ
قصيدتي / هذا مدارُ دمي
نشيدٌ يستديرُ على الزمانِ
يصل الغصون بجذرها ،
يصلُ المرائي بالاغاني
هو ذا المساءُ يجيءُ محتضناً مسافاتي /
دخلتُ مدار اغنيتي /
اكتملتُ
وجداً / خذي شفتيَّ ياريح المساء

وتلطفي بهما :

ازرعي صوتي على شرفاتِ سيدتي

ونامي

في شَـعرهـا الصـالـي ،

وجينـي

في حلمها قمحاً واشعاراً ،

خذي عينيَّ ياريح المساءِ

وترفقي بهما :

ازرعي قمرينِ من عينيَّ في شرفات سيدتي

ونامي

في دفئهـا العالي ،

خذي رئتيَّ ياريح المساءِ

هو ذا المساءُ يجيءُ محتضناً مسافاتي /

دخلتُ مدار اغنيتي /

استدرتُ

قمراً من الأشواقِ /

سيدتي على قلبي ،

وقلبي خاتمٌ سحرته سيدتي ،

وهذي إصبعُ الحب اللطيفة حولهُ :

ـ « لبيكِ سيدتي »

ـ « اعترفْ »

بين يدي سيدتي اعترف الآنَ ـ

انا العاري من فرحي ،

يكسوني حبكِ عشباً وهواءً

يرفعني من انقاضي

يمشي بي فوق الماءْ

يعلمني كل الاسماءْ

يامرني : إقرأْ باسم الأشياءْ

اقرأْ باسم الحجرِ الخالقِ /باسم المعدن اللطيفِ /باسم الماء

والهواءِ والترابْ /

باسم العناقيد التي ترقص تحت الشمسِ ،

والأيدي التي تعصرُ جسم الخمرِ ،

باسم خضرةِ الزيتونِ ،

والأيدي التي تصنع زيت القلبِ ،

باسم الحنطة البيضاءِ ،

والأيدي التي تعجن خبز القلب ،

باسم النبع والجبلْ

اقرأ باسم الجسد ــ المرأة ،

باسم الجسد ــ الرجلْ

اقرأ باسم من بنى

اعمدة الروح ، ومن بنى

اعمدة الجسدْ

اقرأ باسم والدٍ وما ولدْ

باسم الحضارات التي أشادها هذا الطائلُ الجميلُ ، هذا

الواحدُ الأحدْ

... هو ذا المساءُ يجيءُ محتضناً مسافاتي /

أعلق كوكبي افقاً لسيدتي

واجلس في الحنين ، /

تقدمت شفتي الى جسر ،

خرجتُ من احتراقي

كالخبز ، نشوانَ النبوة /

حاضناً صوتي ،

اغنـــي :

للا ، للي ، لويا ...

هطلـــت في اصابعـــي وردة الضوءِ والهـواءْ

غســلتْ لــي مدامعــي ومشت تغسل السـماءْ

مطـــرٌ في اضـالعـي ام جناحان مـن بكـاءْ

تابعـي ، ريح ، تابعـي طـار بي طائـرُ المساءْ

طار بي طائر المساءِ الجميلْ

جسدي غيمةٌ ، ووجهي افولْ

ودمي ، عرشهُ على المساءِ ،

والقلبُ على العرش كوكبٌ مذهولْ

... هو ذا المساءُ يطير محتضناً مسافاتي /

لسيدتي التي تمتد من قلبي الى قلبي

لسيدتي التي تلدُ الهواءَ على فمي ،

امتدَّ قنطرةً من العشبِ

لسيدتي التي تاتي دمي من اولِ الخصبِ

لعينيها ، لشرفة وجهها العالي على الافقِ

لسيدة القرنفل والبياض العذبِ ،

ارفع كوكب العشقِ

هو ذا المساءُ يطيرِ محتضناً مسافاتي /

انفتحتْ

جسراً من الأشواقِ ، يعبرني الحنين الى الحنينِ

تقتاتُ اضلاعي خُطى الموتى ،

وتأكلُ من جبيني

اقدامُ من يتدافعون الى النهارِ

تمشي على قلبي العصورُ ،

وتستريحُ على انتظاري

هو ذا المساءُ يطيرِ محتضناً مسافاتي /

اكتملتْ

لغـةٌ ،

خذي ياريحُ قلبي اغصان زيتونٍ ، حمامْ

أتممتُ نعمته على الدنيا ،

رضيتُ لأمي الأرضِ السلامْ

دينـاً ،

رضيتُ لها على الجدِ السلامْ

قصة :

الـــــدليـــــل

قصة : محـمد زفـزاف

كنا نرتشف البيرة الباردة بتلذذ في مقهى « خوانادي آركو » الساعة تشير الى الحادية عشرة والنصف . كان صديقي الانجليزي يبدو في عينيه الانهاك الدائم ، ولكنه على كل حال ، أكثر حيوية مني . سألني فيما اذا كان هناك باص في هذا الوقت يتجه الى اصيلا . قلت له ان سيارات الاجرة متوفرة .

رفع كأسه الى شفتيه وهو ينظر خلف الزجاج . الشارع خال الا من بعض المراهقات المتجهات الى الشاطىء يحملن فوطاتهن على أكتافهن أو تحت آباطهن وهن يتضاحكن..لم يكن هو يبالي بهذا العالم ولا بهن. أما أنا فقد كن يثرنني ، ربما لانني كنت أصغر منه سنا ، وربما أيضا لان بلاده هي بلد النساء الشقراوات الجميلات . قلت له :

ــ انهن جبيلات .

خرج من عالمه الخاص كمن وخزته ابرة .

ــ آه .. هل قلت شيئا ؟ هل تتحدث معي ؟

ــ نعم . قلت انهن جبيلات .

ــ مــن ؟

ــ هؤلاء الفتيات .

ــ صحيح جبيلات .. بلدكم تغير كثيرا . اشرب بيرتك . هل تريد واحدة اخرى ؟

ــ شــكرا .

ــ اشرب ما تشاء . هل تريد أن تأكل شيئا . أم تترك ذلك حتى نصل الى أصيلا ؟

ــ كما تشاء .

ــ كما تشاء أنت لا أنا . لقد أكلت في الصباح الباكر بما فيه الكفاية .

قل لي : هل تعتقد أنهم سيساعدوننا هناك ؟

ــ أعرف أولئك الناس . بقدر ما هم شجعان فهم طيبون .

دخل بائع جوارب متجول . أخذ يمطط زوجين من الجوارب أمامي .

ــ سلعة جديدة من جبل طارق . صوف حقيقي .

قال النادل :

ــ لا . انها من جزر كنارياس ، ألم تسافر قبل اسبوع الى لاس بالماس قل الحقيقة يا عبدو حتى يقتنع الزبائن .

رد البائع :

ـ دعنا نسترزق الله يا حميدو .

ـ غادر مقهى خوانادي أركو ، واسترزق الله في أي مكان .فمدينة طنجة عريضة واسعة . عندي فكرة . لماذا لا تذهب الى فاس أو مكناس أو أية مدينة اخرى داخلية ؟

ـ ان سلع سبتة ومليلية المهربة تصل الى هناك . الله يعفو علينا من هذه الحرفة ، هات قليلا من « الطابا » فأنا لم أفطر هذا الصباح . وربما لن أتغذى أيضا . السياح قليلون هذا الموسم . لم أبع شيئا منذ الفجر الباكر .

ناوله النادل صحنا من الكفتة ، وصب فوقه صحنين صغيرين من الطماطم والبطاطس المخللة .

قال البائع :

ـ ما هذا الخليط ؟

قال النادل : ـ ماذا تريد أيها العريان ؟ خاتما يا مولاي . كل أيها الحلوف (الخنزير) واملأ بطنك . ما لا يقتل يحيي .

انهمك البائع المتجول في الاكل ، كان يأكل بشراهة . جوع حقيقي فعلا . كاد أن يمسح بجواربه التي وضعها فوق الفاصل . لكنه تدارك الامر . وتناول ورقة موضوعة أمامه ومسح بها أصابعه واستمر في الاكل .

قال الصديق الانجليزي :

ــ هل نتصرف ؟
ــ كما تريد .

دفع الثمن بعد أن عاق جرابه على كتفه الايمن . حملت أنا الحقيبة الجلدية التي كانت موضوعة في الزاوية حيث كنا نقف . مررنا بفندق رامبراندت وانحدرنا صوب محطة سيارات الاجرة المتجهة الى أصيلا على أن نسافر فورا الى قرية دار الشاوي ، لكي يسجل أحاديث مع المحاربين في صفوف فرانكو ضد « الروخوس » (أي الحمر) . قال بأنه يعمل لصالح احدى الصحف في مانشستر . لم أكن متأكدا من ذلك . ولكن من الممكن أن يكونوا صحافيين أو فنانين ، كل هؤلاء الاوربيين ، وقد يكونون لا شيء . لكن الاكيد أنهم أحسن حالا مني . أنا الذي ظللت أجري وراء الحصول على جواز سفر للذهاب الى أي مكان في أوربا أو الخليج العربي . قلت للصديق الانجليزي :

ــ لماذا أنت متعجل ؟ فدار الشاوي قريبة جدا من هنا . على مسافة دقائق من أصيلا .

ــ لا شك أنك تريد أن تنزل الى البحر لتستحم ، ولكنني في حاجة اليك لتترجم لي .

ــ أنا لا أحب البحر كثيرا .
ــ طيب ، أعرف . ماذا تريد ؟
ــ ماذا ؟
ــ أن تشرب بيرة .

قلت : فكرة جيدة ، وفرص مثل هذه يجب الا تضيع ، دخلنا الى أقرب مقهى . فضل هو أن يشرب « طونيك » . فهمت أنه لا يشاركني

رغباتي وقررت ألا أكون ثقيلا • لذلك بعد وقت قليل ، كنا في قرية دار الشاوي • وعندما وصلنا الى هناك ، كان في استقبالنا شاب جبلي يرتدي جلبابا قصيرا ، ويضع على رأسه « سمبريرو » ملونا • كان يتحدث بالانجليزية •• ويبدو أنهما يتعارفان منذ زمن قصير جدا • وقلت : ها مهمتي الآن قد انتهت • تحدث الي الشاب الجبلي بالعربية :

ــ هل أنت من أصيلا ؟

ــ لا •

ــ من أين اذن ؟ من طنجة أم من الداخل ؟

ــ لا • أنا من القصر الصغير • وتلقيت تعليمي الثانوي في طنجة •• لكنني لم أوفق في دراستي •

ــ كثيرون هم أمثالنا • أما أنا فقد فضلت أن أعيش بين هــذه المدائن • لقد عشت في لوندريس وستوكهولم ، حيث قضيت ستة أشهر سجنا • أنا أعيش هنا في راحة تامة • هل تعرف توم جيدا ؟

ــ لا • لقد التقينا بالصدفة في طنجة •

ــ انه انسان شجاع • نلتقي مرتين أو ثلاثا في السنة • اذا كنت صادقا معه فستعرف أي نوع من الرجال هو •

ــ هل يأتي دائما الى هنا لاجراء أحاديث مع السكان ؟

ــ أحاديث ؟ أية أحاديث ؟ آه فهمت ••

سكت الشاب الجبلي وأخرج من جيب جلبابه علبة سجائر • كنــا نسير في طريق ترابي مليء بالحفر والاحجار الصلدة البيضاء اللون مثل الجير •

كانت العصافير تزقزق في الخلاء حولنا : وتنتشر بعض الاشجار القصيرة والصبار الشائك تحت حرارة شديدة • تناول الشاب الجبلي الحقيبة التي كانت معي • ثم قال توم :

ــ عليك أن تبقى هنا بانتظاري • ربما تحفظوا منك •

قلت : ــ ولماذا يتحفظون مني ؟

ــ انهم عندما يتحدثون عن مواضيع حساسة مثل الحــروب ، يتحفظون من بعض الاشخاص الذين لا يعرفونهم ، خصوصا المغاربة • أما هذا فهو واحد منهم •

ــ كما تشاء •

أتى الي بعلبة سجائر ، واجتزت حفيرا صغيرا جافا تنط حوله بعض الجداجد •• ذهبت وتمددت في الظل تحت شجرة تين • وظللت أنظر اليهما وهما يصعدان المرتفع حتى اختفيا نهائيا • كانت السماء صافية جدا • وبعض العصافير تعبر من حين لآخر ولا يسمع أي صوت غير أصواتها • ثم استسلمت لريح شرقية خفيفة في الظل • ولا أدري كم نمت تحت الشجرة الى أن سمعت جلبــة فوق رأســي فاستيقظت • قال توم :

ــ هل نمت جيدا ؟ لا شك أنك تشعر بالجوع •

قال الشاب الجبلي وهو يضحك :

ــ كنت أعتقد أنك أكلت كل تين هذه الشجرة •

ــ اني لا أحب التين •

لم يسر معنا الشاب الا مسافة قصيرة • ثم عاد ليختفي بين المدائن • وعندما بلغنا الطريق المعبدة جلست على علامة الطريق ، في حين ظل توم واقفا الى أن شعر بالتعب ثم جلس على التراب • كان الشاب الجبلي قد طمأننا على أن الحافلة الذاهبة الى أصيلا سوف تمر قريبا • وبالفعل ، حوالي ربع ساعة كانت الحافلة تتوقف لينزل منها بعض الجبليين والجبليات الحفاة • وكانت رؤوس بعض الاطفال مدلاة كالفواكه الناضجة ، خلف ظهور أمهاتهم •

قلت لتوم ونحن في الحافلة :

ــ كيف كان التحقيق الصحفي ؟

ــ على ما يرام •

ــ لا شك أن أغلب أولئك العجائز يفتخرون بقتلهم لأكبر عدد ممكن من الروخوس •

ــ تماما •

ــ يفتخرون بذلك ، ويفتخرون بعدد النساء اللواتي اغتصبوهن في الكنائس •

ــ تماما ••

ــ وبعدد الأطفال الذين قتلوهم وقطعوهم اربا •

ــ آه تماما •• كل ذلك سجلته •

كانت الحقيبة موضوعة بين فخذي • وأخذت أتصور ما يمكن أن تضمه آلة التسجيل من قصص واقعية أو خيالية • فهؤلاء المحاربون القدماء يكذبون أحيانا ، وينسبون أفعال غيرهم اليهم • وبعد حوالي عشر دقائق . توقفت الحافلة في الطريق المؤدية الى أصيلا •• لم ينزل

أحد ، ولكن فتح البابان الخلفي والامامي ، وصعد رجال الدرك الملكي. شعرت بتوم يرتعد من الخوف. فتح الدركيان الحقيبة التي بين قدمي.. لم تكن فيها آلة تسجيل .. كانت محشوة بكمية كبيرة من الشيرا .. قال الدركي وهو يضع القيد في يدي :

ـ أنتم تغتنون من بيع المخدرات ، ونحن نموت هنا تحت الصهر والحرارة .

ـ والله ... أنا ..

ـ لا أفهم شيئا .

وشعرت بركلة تلقيني من الحافلة الى التراب وقد ملأ فمي .

☆ ☆ ☆

الشطر الآخر من المدينة

قصة : علي عبد العال

كنت أظن أن ما حدث في نهاية الاسبوع الاخير ، ما كان ليحدث الا بالقسم الشرقي من المدينة ، ولقد أتاحت لي هذه الاحتمالية التي ترافق الظنون عادة امكانية الاستمتاع أكثر في شوارع الشطر الغربي من المدينة •

استطعت ، خلال الشهرين اللذين أعقبا هجرتي ، أن أوفر قسطا من الراحة ، وبما أني انتقلت من شطر المدينة الشرقي الى شطرها الغربي ، فان ذلك ، وحسب اعتقادي ، جعلني أحس بأنني ابتعدت عن تلك العيون التي كانت تضايقني الى درجة الخوف ، والتي أوصلتني الى حالة التفكير بالفرار •

لذلك هيأت نفسي ووظبت مشاعري لكي تستقبل الراحة الموعودة في المكان الجديد والغريب .

اعتقدت ومنذ زمن بعيد ، بأنني امتلك في دواخلي حاسة أتفرد بها عن بقية البشر .! وهذا سر أحتفظ به لنفسي ، ولا أحب أن أطلع عليه أحدا ما . مفاد هذا الاعتقاد أنني أمتلك قدرة خاصة على تحديد شخصيتي في اللحظة المناسبة . وبمجرد لمحة خاطفة في العين التي تقابل عيني أستطيع ادراك الانطباعات التي تولدها ملامحي في تفكير المقابل ، ولقد كان الحيز الذي شغله سقوط ملامحي على الآخرين ، من رجال ونساء ، يتراوح بين عدم الاهتمام في حالات غالبة ، وبين ألفة صافية توحي بها عيوني الواسعة ونظراتي الحالمة في بعض الحالات .

أي ، أنني لم أشعر قط في يوم من الايام أن بامكان ملامحي ، على ما تبدو عليه في الظاهر ، أن تكون ذات سمات خطرة .

نعم ، فأنا لم ألمس بدواخلي العميقة أية خطورة على الآخرين ، لذلك لم أشك يوما بطبعي الاليف ، وبعدم عدوانية روحي التي تجنح للهدوء والعزلة في أغلب الاوقات .

ذلك بالضبط هو الاحساس الذي جعلني أبقى لفترة أطول في قسم المدينة الشرقي ، لاني كنت واثقا تماما من أن هيئتي العامة ، واتزان حركاتي العفوي ، وبعض من بقايا البراءة التي يمحوها العمر كلما تقدم ، كنت واثقا أن كل هذه الاشياء لا تثير الخطورة مطلقا في العيون التي كانت تضايقني .

سكن ، ولكي أحسم حالة الشك التي بدأت تتسرب الى أفكاري ، قررت الرحيل عن القسم الشرقي من المدينة ، بعد أن كثرت الاشاعات بين الناس ، بأن أولئك الرجال الذين يلاحقون الناس في كل مكان ، لا يعيرون اهتماما للمظهر ، بل الذي يثير خوفهم أكثر انما هي النفوس وما تفسر ٠٠! وهم لا يخيفهم أي رجل حتى ولو كان يحمل سلاحا ، لان التعاليم تقضي بأن يقتلوه فورا ، وهـذا حـل أدمنوه لكثرة ما استعملوه ، والذي أدى ، لكثرة بساطته ، لان يتجنب الناس حمل أي شيء يمكن أن يفهم على أنه سلاح ، بما في ذلك قلامات الاظافر ٠!

لذلك ، وحسب الاشاعات المحلية ، فان أولئك الرجال بقوا فترة غير قصيرة شبه عاطلين عن العمل ، مما أثار حفيظة الاسياد عليهم ، وبالرغم من كل تأكيدات الصحف اليومية ، وتقارير المراسلين الاجانب، وحتى دائرة الأنواء الجوية التي تؤكد جميعها وباستمرار على هدوء الوضع ، واستتباب الامن ، والمضي قدما في الانخراط بعجلة الانماء والاعمار في الشطر الشرقي من المدينة ، الا أن الاسياد كانت تراودهم الشكوك ، وعلى ما يبدو أنها شكوك مؤرقة بالنسبة لهم ٠

هذا ما تيقنت منه بالصدفة ، لانني لا أثق كثيرا بالشائعات المحلية ، وذلك عندما رأيت سيارة الرجال المسؤولين عن حماية الامن والطمأنينة واقفة أمام مبنى ثانوية الطلاب الصباحية ، حين كنت أقوم بزيارة بعض الاقرباء الذين يقع بيتهم قبالة المبنى ٠

ولما عدت الى البيت ظهرا ، ولم أزل بعد لم أشعر بالجوع النهائي الذي كانت أمي تعرف توقيته في جسمي ، لذلك لم أطلب الغداء ،

وفضلت ، كما في مرات سابقة ، انتظار رجوع أخي الصغير من دوامه الصباحي ، حيث أن خفته ، وشهيته النظرة للطعام تساعداني على الاقبال لتناول وجبة الغداء بدون الحاح من أمي ، التي أحرص دوما الا أجعلها تتعب من ذلك الانحاح الذي أفتقده الآن .

لم يأت أخي الصغير الغداء في ذلك اليوم ..! وبعد التاكد مطلقا بأنه لم يترك أي خبر حول امكان تأخره ، وحسبما أكدت أمي بما لا يقبل الشك ، أنه اليوم أشد جوعا لانه لم يفطر جيدا في الصباح ، وذهب للثانوية على عجل . لست أدري كيف خطرت برأسي للحظة سريعة . تلك السيارة التي كانت تقف أمام مبنى الثانوية بكل ملامحها المعروفة . ما كان لذهني ، بل ولتصوري الخيالي ، أن يجرؤ على وضع احتمال بسيط يهجس الى وصل أي علاقة يمكنها أن تربط أخي الصغير وأولئك الرجال ، وكانت الحواس السليمة ، التي تقدر الاشياء بشكل موضوعي ، وتزن الامـور وفق الثبات الطبيعي لمجريات القوانين الصحيحة بعيدا عن الاكاذيب والتهويلات ، وحسب الاحساس بالطمأنينة الذي توافر في بيتنا نتيجة عدم ارتكابنا لأية معاصي بسبب من هيمنة أخلاق أبي الدينية على فضاء البيت ، لم ينتابني أي خوف في البداية ، ولم تراودني الظنون الرهيبة .

« لقد تأخر قليلا .. هذا لا يعني أن الدنيا يجب أن تنقلب . » هكذا صرخت بوجه أمي في الظهيرة الفاترة من الشتاء البارد . ذهبت الى غرفتي ، وبدل من أن أضطجع على السرير بانتظاره ، وجدت أنني لا أقدر على ذلك ، وكما يفترض بي ، وأنا الاخ الاكبر ، أن أكون

محورا للهدوء المسيطر داخل البيت ، لاغيا أنفاس القلق التي بدأت تضطرب ، وجدت أني لا أقدر على ذلك ..!

حاولت خــلال دقائق طويلة أن أحقق الانفصام عن مشاعر أمي وقلقها المضاعف ، وأن أجعل الوضع يبدو وكأنه طبيعي مثل أي يوم آخر . لكني لم أقدر على ذلك أيضا .

بقيت أجول في غرفتي ، لا أحد يلمس القلق الذي بدأ ينمو بداخلي، ويزيح بهدوئي تدريجيا .

أمي قالت : أنه جوعان الآن ، وأنه لم يفطر في الصباح كما يجب .

لا أدري كيف سيطرت علي هذه الحالة أكثر من الاشاعات التي كانت تمترس في أزقتنا .

لن أرتدي ملابسي وأخرج للشارع ، الطلاب آبوا من المدارس ، وهم الآن انتهوا من مضغ الطعـام على أقـل تقدير ، أكيد سأجد الشوارع خالية .

« أين أخي .. ؟

انه لم يعد ، رغم اقتراب المساء ..! » همهم قلقي الذي أخذ يتغلب على رزانتي المتبقية .

★ ★ ★

أثناء الغروب الذي شمل المدينة ، بدأت تهزني تلك الرجفـات العصبيه ، رجفات الجنون ..!!

المحيطون بي من الاصدقاء والاقرباء ، بل وحتى أمي نفسها ، قدروا جميعا ، أن هذه الحالة الهستيرية التي اجتاحتني بغتة انما هي ردة فعل

ناتجة عن مقدار حبي وتعلقي بأخي ، فضلا عن ادراكهم الحقيقي بانعدام أية وسيلة تمكنني من الوصول اليـه ، كانوا كلهم ينظرون بوجهي الشائط وكأنهم يتذكرون حكاياتي عن الانسان الذي لا يقف أمامه مستحيل ، تلك الحكايات التي تنتهي بوعظ مفاده ، أن الانسان لا يمكن أن يكون عاجزا أبدا .

أنا عاجز اذن .. وحقا أدركت ذلك من الوهلة الاولى ، لقد اختفى أخي ، وحين علمنا أن خمسة من طـلاب مدينتنا في تلك الثانوية تم اقتيادهم الى « دائرة الامن » ، كنت وحدي أعلم جيدا في أي مكان من السيارة جلس أخي الصغير ، وخمنت على وجه الدقة بماذا كان يفكر وهو في الطريق الى « الامن » ، كنت أحس جيدا أنه كان يفكر بي وبوجبة الغداء .

☆ ☆ ☆

انهارت كل الرزانة التي كانت ترافق خطواتي ، بل لقد انهار كل المنطق الذي كان يهيمن على عقلي ، وبدون أن تظهر أية نتائج حول اعتقال أخي الصغير ، وجدت أنني كنت على خطأ فادح في تقدير كل الامور .! نعم كنت على خطأ فادح .

لم أشعر كيف تطورت الامور الى هذا الحد ، ولم أنتبه الى العقول الخبيثة التي امتدت بالخفاء وحاصرت المدينة .

لقد انقلبت الاوضاع في غفلة من الاستقامة التي كانت ترافق جميع التقلبات الممكنة . عندها أحسست بجنايتي التي اقترفتها بدون وعي ، حين حصرت تفكيري بنفسي بأنني مجرد شخص لطيف ، طيب النية ،

سليم الطوية ، وليس بالامكان أن يشكل أية خطـورة على المجتمع الغـافل .

عاد أخي في اليوم التالي ، كان واجما ويلمح بأنه يفضل الصمت . انفردت به في الليل ، وكما لو أني أهجم على خوفي ، سألته مرتجفا :

ـ ما الذي حدث ...؟

أجاب بهدوء ، وكان صوته كأنه صوتي الذي يسبقه بسبع سنوات ، « قالوا أني مضاد للثورة .. ولم ينتظروا جوابا مني .. » صمت .. « اخذوا يضحكون ، بينما أصابعهم المتورمة ، الخشنة راحت تندس بين أجسادنا ... فجأة وجدنا أننا نبكي من الخـوف !! » صمت « لقد تلاشت أحلامنا بالبطولة .. »

شعرت أنه صار أكبر مني في تلك اللحظة ، لقد اجتاز سبع سنين في ليلة واحدة .

قررت بما لا يقبل التراجع أن أرحل عن القسم الشرقي من المدينة ، واستفدت من عدم الامكانية الفعلية للقدرة العامة على القيام بأي عمل مخيف في تلك الايام ، واستثمرت تلك التجربة على شيء من الالهام الذي لا يخلو من الاقدام ، ورحلت عن شطر المدينة الشرقي بعد أن صارت شكوكي يقينا .

★ ★ ★

ربما أن ذلك سوف لا يحدث مرة أخرى في حياتي ، وربما بامكان عقلي وأوهامي مجتمعين أن يقنعاني بأن ما حدث لي انما هو مجرد حادثة

طارئة ليس بالامكان تكرارها • وها أنذا أقترب من تصديق ذلك ، بالرغم من عدم تصديقي الكامل بأن هناك أصفاد في يدي ، وأنني الآن في عقر داري •

يبدو لي أن الرجال هنا ، في القسم الغربي من المدينة ، أكثر دقة في تجسيد الامور ، مما جعلني أنسحق تماما ، وأفقد الثقة بأخص ما يخصني من مشاعر ، مشاعر الاعتماد على النفس •

، ومنذ شهرين ، حاولت توظيب نفسي للتخلص من أدران الحالة اللامتوازنة التي اخترقت كياني في القسم الشرقي ، والتي أربكت مزاجي وعكرت صفو احساسي ، فما بالي الآن وأنا أتجول مكبلا بالاصفاد في شوارع قسم المدينة الغربي تلك التي تنادي بالحرية •!

ان ذلك سوف لا يتكرر مرتين ، هكذا تقول حواسي ، لكنني بدأت أفقد الثقة بحواسي ، ولم أعد أركن لصفائها القديم • الامر الذي أدى بي الى تحسب مؤرق يتجنب أي نوع من الاختلال الذي قد يطرأ على مشيتي في الشارع ، أو طريقة تدخيني وأنواع التبوغ التي أستعملها ، أو بصقتي في الاماكن المناسبة ، التي وعلى الرغم من تحفظي الشديد، فانها قد تسقط سهوا على أحد شعارات الحرية المنشورة في كل الاماكن . وأن أرد على كل التحيات التي أتلقاها من ناس لا أعرفهم ، وأن ألزم جانب الحذر الدقيق من كل الشحاذين ، أؤلئك الذين كانوا ينالون شيئا من عاطفتي الرقيقة •

بدأ رأسي يؤلمني ، لقد تشابكت كل الكتب داخل رأسي الذي تحاصره جدران غرفة مساحتها أقل من متر مربع •

أين الثورات التي عصفت بالارض ، والتي قتلت من البشر ما جسد عظمتها ؟..

لم لم أمت في ثورة جسدي الحقيقية ؟. •

رأسي يوشك على الانفجار،رائحة البول تأتي من النافذة العلوية، تلك التي أشم منها الهواء •

الاحذية تتسلط على جميع المنافذ التي ربما أفكر بها ، عـالـم أنسانيتي الاليف المسالم يحمل صفة موته في شذوذ هـذه القوانـين السائدة •

ليس بامكان الانسان ، أي انسان ، أن يعتمد على نفسه فقط ، مع مثل هؤلاء الرجال ، أنـه فقط يمكن أن يكون ميتا ، أو كرامة ميتة في أقل تقدير •

تكرار متواصل من الافكار المقتولة بدأ عقلي ينسجها في فراغ مرعب وعزلة محاصرة •

في الايام الاخـيرة ، كان كل الوعي الذي اكتسبته في السنين السالفة محرجا بسؤال بليد ، هل ما أعيشه من واقع انما هو مجرد وهم .. ؟ •

من شدة تعلقي بالحقيقة العاديـة ، تلك الحقيقة البسيطة التـي ترافق الناس أينما يحلون ، ماكنت أحفل بالتفكير الجدي ، ذلك التفكير الذي ينطوي على ايجاد حلول من شأنها فك رموز الحالات المبهمة التي تحيط بوجود الانسان •

لم أكن لاجهد نفسي بمثل هذه الامور ، لكن عنـدمـا تساوى أحساسي الدفين في نقطة متناقضة،بين شدة ألفتي وسذاجتها ،وأمكانية

خطورتي بنظر الآخرين ، قادني ذلك الى تساؤل مبهم يضيع في تلافيف هذه الايام القذرة ، في هذه الليالي الغريبة ما الفرق في أن أمـوت وفي أن أبقى حيا .. ؟ .

★ ★ ★

كيف أنقذ نفسي من ذلك ؟ ، كيف أمتلك مقدرة تنقذني مـن الشعور الكامل بكوني انسانا يعيش ، وهو ميت بحقيقته الجوهرية التي تشمل الوجود ؟

كان بأمكاني ، فيما سبق ، أن أستسيغ حياتي الاعتياديـة وأنا رجل مستقيم ، يذهب صباحا للعمل ، ويؤوب الى بيت أليف يقدم له راحة متواضعة ، لكن وأنا أرقد في حجرة ضيقة تحت الارض ، وليس بأمكان « البشر » الذين يحيطون بي أن ينسوا أني واحد مـن الجنس البشري ، أو يعاملوني على أساس هذا الافتراض البديهي ، فأن الموت وحده أفضل من كل شيء .

الهواء ينسكب بلا هوادة من نافذة البول العلوية ، الالم الحار يشتد داخـل رأسي فتدور به مساحة الحجرة الضيقـة وسط غثيان محكم ،

البلاط البارد ينفث في جسدي قشعريرة الحمى المريضة . كنت أحس تماما أن الانسان الذي يعيش بداخلي بدأ يموت .

لست أعرف لمـاذا أختفت قدرتي على الصراخ ، ولم هذا الخرس الذي اجتاح خلايا بدني الجاثم على البلاطات الباردة . ؟ .

أسمع ، بين الحين والحين ، صرخات مدوية تتفجر بألم قاس ، تستغيث بالآله المقدس وجميع الانبياء والصالحين ، وأعتقد أن تلك

الصرخات الحارة المتعذبة هي بالضبط التي جعلتني أصاب بالخرس . ماجدوى أن أصرخ وسط هذا الصمت المتوحش الذي ينظر الى الدماء بسخرية رتيبة على مدى السنين . ؟

بدأ الانسان بداخلي يحتضر ، وأبتدأ الجسد يستقل رويدا عن ملامح الروح والافكار ، وتحركت الغرائز الحيوانية لكي تصد الجحيم البارد الذي يهوي على وجودها من النافذة العلوية مصحوبا برائحة البول البشري .

انفصال عسير بدأ يدب داخل كياني الشامل ، وكان ذلك المخاض هو الذي سبب لرأسي هذا الدوار المتواصل المشحون بالغثيان الكريه .

هل ثمة صباح سوف يطل..؟ وكيف سيتسنى لي معرفة ذلك..؟ جردوني من ساعة الوقت ، وحتى الساعة سوف لاتنفع كثيرا ، أذ بعد حين ستكون كل الساعات الوقتية التي تمضي داخل الزمن متشابهة،وفي هذا الدوار ، وأذا تطلعت الى الوقت فسوف لا أستطيع تمييز فيما اذا كانت عقارب الساعة الواقفة على الواحدة ، هل هي الواحدة ظهرا أم الواحدة ليلا ؟ .

أنه ليل أبدي مطبق ، ليل ممعن بالكتمان ، ليل حقيقي أجرد، يشبه ليل الاموات .

★ ★ ★

عدت مرة أخرى للشمس ، وللمرة الاخرى عدت الى الشوارع والمقاهي . لكن أعتقد بأنني لست أنا بالضبط على وجه التحديد .

بعض حالات الخوف تسري مثل تيار بين فرائصي ، بل ، في بعض اللحظات ، أشعر وكان قلبي يهبط الى الارض لمجرد أن يضع صديق يده على كتفي من الخلف قصد المداعبة •!

لقد حدثت هوة بدواخلي ، سلسلة الاتصالات التي عصفت في عالم جسدي وأفكاري وحواسي داخل تلك الزنزانة التي تشبه جحر الفأر ، هذه السلسلة المترابطة المتشكلة وفق قوانين لاشعورية في محيط من الانسجة السرطانية الشاذة ، تلك التي تسودفي عالمنا السفلي المتفرد، لا يمكنني تفكيكها بسهولة وأنا جالس في المقهى مثلا •

زوجتي تلمست بروق الذعر على غفلة من عيوني • « لاتخف•• ما بالك ، لقد كنت قلقا أثناء نومك ليلة أمس ؟ خذ ابنتك تمش في شمس هذا الصباح » •

أستطيع أن أؤكد بأن قربي من طفلتي هو المعادل الوحيد الذي يرد الي شيئا من توازني القديم • لذلك كنت ، حين أضمها الى صدري ، أفعل ذلك بحب أكبر ، وبعاطفة قوية مضاعفة أكثر من ذي قبل •

بعد الآن لا أستطيع أن أحارب ، أستطيع التدخين أكثر مما سبق، وأن أشرب الكحول يوميا حتى الافراط ، وأستطيع أن اكون صامتا لعدة أيام وأكثر ، في الشطر الآخر من المدينة •

☆ ☆ ☆

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



آفاق المعرفة

انبجاس الأسطورة

حنا عبود

من يحكم أمريكا؟

«شواهد من الاعلام الاميركي»

يحيى العريضي

انبجاس الأسطورة

من يحكم أمريكا؟

حنا عبود

في تنامي العقل ذبول للاسطورة . ونضج العقل اعلان لموت الاسطورة . وقد افصح نيتشه عن ذلك في القرن التاسع عشر ، متنبئا بأن الانسان المتفوق في طريقه الى الظهور ، وسوف يلعب الدور الاسطوري الذي كان يسند الى الابطال والآلهة . وقد ذهب الكثير من الباحثين هذا المذهب ، وتابعوا مسارات التطور فيما يتعلق بالشعر والادب ، فلاحظوا ان الطوفان الحضاري والطغيان العقلاني لن يتركا للشعر زاوية صغيرة ، فهو من بقايا الاسطورة ، تركة الماضي القديم .

ولكن التناقض الذي تقع فيه امثال هذه المذاهب ، هو ان الاسطورة لم تنشأ الا بنمو العقل ذاته ، كما يجسده الدماغ . والسؤال الكبير الذي تواجهه هو : هل يقنع العقل بحدود الواقع ؟ اليس في العقل نزعة قبلية هي النزوع نحو الاستشراف واختراق ما صار ملكا له الى ما ليس يملكه ؟ ان الاسطورة لا تموت الا اذا قنع العقل بالواقع ورضي به ، وستظل حية ما دام العقل يتجاوز الواقع .

اذا نظرنا الى الماضي من هذه الزاوية ربما استطعنا استكناه اسباب نشأة الاسطورة ، وتفرع الادب منها ، او بالاحرى انطلاق الادب منها .

في بحث سابق رأينا كيف ان التكاثر البشري ، الذي لا يتقيد بفصل كبقية الحيوانات ، دفع الانسان الى النزوح من الغابة . وخروجه من الغابة ادى الى انتصابه . وقد بينا كيف ان انتصابه هيأ للعين تحديد الابعاد ، تحديد الحجم مما اتاح لليد ان تنفذ اوامر الدماغ الذي واجه مشكلات بيئية جديدة ، فتضخمت مهام اعضاء جسده . فنما العظمان الصدغيان واستقام العظم الجبهي ، وصار النظام العصبي الدماغي اكثر دقة وحساسية بما لا يقاس من نظام الحيوان . وصارت الساق للهرب واليد للطهو وصنع الادوات والبناء .. ومن جملة الاعضاء التي نعتقد انها واجهت نوعا جديدا من التطور : الاذن واللسان .

طفقت قامة الانسان ، بعد خروجه من الغابات ، تنتصب اكثر فاكثر ، ولكن هذا الانتصاب القسري ادى الى تطور في بنية الاذن ، وعلى الاخص في الاقنية الهلالية .

كان الانتصاب بحاجة الى « توازن » . وقد وفرت الاذن هذا التوازن ، بعد ازمنة طويلة من التطور ، حيث اضطرت القناة الهلالية الوحشية ، التي تؤمن البعد الثالث ، وتجعله منسجما مع البعدين الآخرين ، وبمرور الزمن طفقت هذه القناة الهلالية تصبح افقية اكثر

فأكثر . ولكن حتى الآن لم تصبح افقية تماما ، فاذا جعل المرء قامته تنتصب انتصابا مستقيما ، فان زاوية تقدر بخمس وعشرين الى ثلاثين درجة تبقى بين اتجاه القناة الهلالية وخط الافق . وفي امكاننا تقدير هذه الزاوية بمراقبة سير هذا الشخص او ذاك ، فاذا سار وحنى راسه كثيرا فان زاوية ميل القناة يكون شديدا ، فان سار اكثر انتصابا ، تضاءل الميل . وهذا هو سبب في اننا نسير مطأطئي الرؤوس بمعدل ثلاثين درجة. وهذا ما لا يتوفر لاي حيوان ، فارقاها يطاطىء راسه ضعفي او ثلاثة اضعاف الانسان .

هذا التوازن هيأ للدماغ وضعا مريحا . ولكن انتصاب قامة الانسان كانت سببا في ضعف سمعه وتخلف اذنه ـ من هذه الناحية ـ عن اذن الحيوانات الاخرى . لقد ابتعدت الاذن عن الارض ، مما فوّت عليها الذبذبات الصغيرة المنخفضة ، كما فوت عليها الذبذبات العالية . والارجح ان تكون منذئذ قد صارت تتلقى الذبذبات المحصورة بين ٢٠ ـ ٢٠٠٠٠ . وهذه ، كما تشير علوم السمعيات ، الذبذبات الوسط التي تهيىء للدماغ نوعا من الراحة . ولو اتسع مجال الذبذبات من الطرفين ، لكان ذلك عاملا ضد الدماغ ، يجعله يتخذ خطا من التطور يختلف عن الخط الذي اتخذه، ونعتقد ان هذه الوضعية التي توفرت للانسان قامت بتحويل اللسان الهضمي الى لسان نطقي ، والاذن واللسان خلقا الاسطورة ، التي هي ميزة للنوع الانساني قاطبة ، لا يستثنى من ذلك عرق ولا لون .

على الرغم من الدور الكبير الذي لعبته العين واليد ، فانهما لم يستطيعا خلق الاسطورة . ولعل السبب يرجع الى ان العين تحدد الحجوم ، وان اليد تتعامل مع الواقع المادي المحسوس . وهذا التعامل « المادي » ، أو ان شئت ، هذا التعامل « الواضح » لا يتيح للعين واليد خلق الاسطورة . لا بد من التعامل مع « اللاواضح » ، مع « اللامحدود » . ان اي وضوح او اي تحديد ، يمنعُ ولادة الاسطورة .

لكن هذا لم يمنع من مساهمة العين ، في خلق اسطورتين بصريتين كبيرتين هما الشمس والقمر. اما اليد فانها لم تسهم في خلق أي اسطورة، لاستغراقها في ميكانيكية العمل المحسوس المباشر . ان اسهام العين في خلق الاسطورة اكثر بكثير من اسهام اليد .

ونشير هنا اشارة عابرة الى ان اسهام العين في خلق هاتين الاسطورتين ، جر وراءه كثيرا من التطورات،والتراكمات الثقافية. وقد شاعت اسطورة الشمس في البلاد الخصبة مثل مصر ، في حين شاعت اسطورة القمر في البلاد الصحراوية . وربما كان اليهود القاسم المشترك بين البيئتين ، فقد عاشوا في مصر ردحا طويلا وعاشوا في الصحراء ايضا ردحا طويلا . ومع ان العبرية لا تتجاوز في اللفظ سوى ثلاثة احرف اثناء ادخال « ها » التعريف عليها ، فان العرب قد قاموا بقسمة الاحرف الى شمسية وقمرية قسمة متساوية ، وجعلوا اللام تلفظ مع القمرية وتهمل مع الشمسية . . . الا ان هذه النقطة التي خطرت لي الآن تحتاج الى استقصاء دقيق لمعرفة اصول التفكير الشمسي والتفكير القمري (الفكرة الشمسية ، والفكرة القمرية واختلاف التقويمين اختلافا كبيرا. وقد اخذ اليهود بالتقويم القمري ، على الرغم من وجودهم مع المصريين كل تلك المدة) .

ولكن نلاحظ ان اسطورتي الشمس والقمر ادتا الى نتائج عملية اكثر مما ادتا الى خلق ميثولوجيا كتلك التي اوجدها ما يمكن ان نسميه « عالم الخفاء » أو « عالم السر » ، وان الشمس والقمر من اوائل المعبودات المرئية .

ان « عالم الخفاء » يظل مجهولا ، أو يظل غير مستشعر ، مالم تقم صلة بينه وبين الانسان . وتمت الصلة عن طريق الاذن الانسانية التي تعتبر قناتها الهلالية الوحشية اقرب الى الاستقامة من اي اذن حيوان آخر .

بانتصاب القامة ، وباتخاذ الاذن الشكل الحالي،تم الاتصال بالعالم الخفي ، أو العالم المجهول . لقد خلق الصوت الاذن ، وقدمت الاذن للدماغ المعلومات الزائفة الضبابية التي دفعت الدماغ الى التصدي لهذه المعلومات التي تحولت الى اشكالات لابد من اتخاذ موقف منها ، أو بالاحرى تفسيرها تفسيرا مقنعا حتى تتحقق الالفة بينها وبين الانسان.

ولكن لاتستطيع الاذن خلق الاسطورة قبل تحويل اللسان الهضمي الى لسان نطقي . وعن طريق نقل الصوت الى المخ ، تحرك اللسان ، وبتطور المخ تطورت المراكز النطقية تطورا كبيرا . ولو لم يتطور المخ بازدياد الفص الجبهي لما ظهر مركز النطق ، ولا مركز الكتابة ، فالمركزان موجودان في الفص الجبهي تحيط بهما منطقة معرفية . والمقصودبالمنطقة المعرفية القدرة على تمييز المعلومات التي تقدمها اعضاء الجسد .

وتوجد المنطقة السمعية في الفص الصدغي . وهي لا تختلف عن المنطقة السمعية في دماغ اي حيوان . الا ان نمو الفص الجبهي هو الذي سمح بظهور مركز النطق . وتشكل منطقة مقدم الدماغ في الانسان٢٩٪ من القشرة المخية . وهذه نسبة لانجدها ابدا لدى أي حيوان مهما كان راقيا .

وحتى لا يظن القارىء ان هذه المنطقة مختصة فقط بالنطق والكتابة ، فاننا نشير الى ان هذه المنطقة مسؤولة عن تنظيم الشخصية والمزاج والطبع والسيطرة على الذات ، وهذا ايضا غير ملحوظ في اي حيوان . ان تضخم الفص الجبهي ادى بالتالي الى رفع الاشارات الكهربائية التي يصل تواترها في العمليات الفكرية الى الالف في الثانية .

وفي سياق العمليات الترابطية لعبت الاذن دورا في غاية الاهمية ، حيث حولت الصوت الى مقاطع مترابطة ، الى صوت ذي معنى ، الى لفظة ، تؤازرها في ذلك كل من العين واليد . فالعين نقلت الاشكال والاحجام والابعاد ، واليد ، مع كثير من اعضاء الجسم ابتكرت لغة اشارية أولية .

وقد مرت فترة طويلة جدا سادت فيها اللغة الاشارية ، بزعامة اليد ، قبل تحويل اللسان الهضمي الى لسان نطقي . وتتألف اللغة الاشارية من اسماء وافعال . اما الاسماء فكانت اليد هي التي تتكفل بالتعبير عنها، يرافقها اللسان الهضمي ببعض الاصوات التي تحاول ان تكون تقليدا للاسم ، اذا كان للمسمى صوت ، والا اقتصرت الاشارة على اليدين، اللتين تشيران الى الحجم او الطول او العرض وذلك حسب طبيعة الاسم الذي تريد التعبير عنه ، وحسب شكله . والشكل في هذه المرحلة هو الذي كان عليه المعول ، فاللغة الاشارية ، بهذا المنحى ، هي لغة الاشكال فقط . ان الشكل كان البادىء في خلق اللغة .

وقد نظن ان التعبير عن الانفعال امر في غاية الصعوبة . ولكنه على العكس . وقد بينت ابسط مبادىء الانتروبولوجيا الثقافية . ان تعبير الانسان البدائي عن الافعال كان اسهل عليه من الاسماء ذات الاشكال المتنوعة التي لاحصر لها . كان يكفي ان يقلد الانسان الفعل الذي يريد اخبار الآخرين به . وتقليد الفعل لايقتصر على اليد، نظرا لتعدد الافعال. فهناك افعال يخبر بها الرأس والعنق وافعال تخبر بها الساقان ، واخرى الجذع .... وهناك بعض الافعال تشترك جميع اعضاء البدن للتعبير عنها .

مرافقة الصوت للاشارة من عمل الاذن ، وهو عمل ثوري في تطور الانسان . لم تعد حركات اليد وبقية الاعضاء عشوائية، صار لها مايسترو هو الاذن التي طفقت تقدم للدماغ مختلف الايقاعات في الطبيعة . والدماغ يعمد الى الربط بين الحركة والايقاع . فظهر مايمكن ان نسميه التعبير الايقاعي الذي يعتبر فاتحة الشعر . وبما اننا سوف نعود الى مناقشة الايقاع والرقص ، سوف نقصر حديثنا الآن على اهمية الاذن واللسان في خلق الاسطورة .

بالتعبير الايقاعي انتقل الانسان من « الصوت » الى « النطق » والنطق بداية الكلام . وكان الكلام في البداية عشوائيا لا معنى له سوى

مرافقة الايقاع ، ولم يتخذ معنى اصطلاحيا في المجموعات البشرية التي ظهر فيها الا بعد امد بعيد جدا .

وسوف نبين ، في غير هذا المكان ، الدور الذي لعبه الايقاع في تحديد الاطر الشعرية منذ القديم وحتى اليوم .

وقد جرت العادة ان تدرس الاسطورة ابتداء من رب الارباب ثم الآلهة الاقوياء ، فالآلهة الوسط فأنصاف الالهة فالابطال ، اي دراسة العائلة المقدسة ، عائلة زيوس . وفي الكتاب الدقيق الموثق للاب فؤاد جرجي بربارة « الاسطورة اليونانية » نرى ان المؤلف يبدأ بالكونيات، اي كيف خلق الكون وظهر اورانوس ثم كرونوس ثم زيوس الذي ساد الاولمب وظل سيدا للكون وللنسل الذي انحدر من صلبه .

ونحن نعتقد ان العائلة المقدسة تمثل مرحلة متقدمة في الفهم والاستيعاب ، اي متأخرة جدا في الزمن ، ونعتقد انه لابد من ان يكون الطريق من الطرف الثاني ، اي من الجزئيات الصغيرة والظواهر البسيطة للكون والطبيعة ، ثم الانتقال بعدها الى الاقصى والاعقد ، فاذا صار لدى الانسان مثل هذا الحشد من الاساطير نصب عليها الآلهة وجعل للآلهة سلالة تتصارع وتنقل صراعاتها الى البشر وهكذا ... فالانسان البدائي لم يتصور « الكون » أول ماتصور ، بل تصور النسيم والرياح الاربع والاشياء الطبيعية المخفية ، وتدرج بعد ذلك حتى اقام العائلة المقدسة ... وقد جرى الامر على الشاكلة ذاتها فيما يتعلق باجتماع الانسان ، ففي البدء الاسرة ثم القبيلة فالبيئة الاوسع فالشعب فالامة حيث اقام الدولة التي تشرف على تنظيم هذه الكثرة الكثيرة . فالاسطورة تبدأ بالاشياء البسيطة والآلهة الصغيرة ، حتى اذا ماتضخمت ظهرت دولة زيوس ، او اسرته المقدسة ، اي كما في الارض كذلك في السماء وليس العكس .

نعتقد ان « الفيتيشية » ثم « الارواحية » منطلق اولي لفهم الاسطورة ، او بالاحرى لفهم تفكير الانسان الاولي ، الذي كان تفكيرا شعريا كاملا ، فمنه ابتدأ الشعر الذي مانزال نلمح بقاياه تنبض بخفوت في عصر النثر الجارف ، عصر « الصواعق » التي اصغرها يسخر من اعظم صاعقة يرسلها زيوس الى خصمه .

نرجح أن تكون الفيتيشية قد سبقت الارواحية ، ولو للوهلة الاولى . لاشك اننا الآن لا نستطيع التفريق بين « الفيتشية » و « الارواحية » تفريقا واضحا كما تجلت عند الاولين . ولكن بما ان الفيتيشية هي ترجيح « الرؤيا » على بقية الحواس ، فان المرجح انتكون قد ظهرت اولا . ان رؤية الانسان للاشياء وهي تتحرك دفعه الى الاعتقاد بقوتها الذاتية . لم يكن يؤمن اول الامر بارواحية الاشياء . كان يؤمن بقدرة الاشياء في ذاتها . اما انتقاله من الفيتيشية الى الارواحية ، او بالاحرى الجمع بين الاثنين اولا ثم الارتقاء الى الارواحية ثانية ، بمثل انجراف الدماغ وراء البصر ثم انتقاله بالتدريج الى السمع . ان اولى مهمات الدماغ كانت حل المشكلات التي تطرحها العين . اما حل المشكلات التي تطرحها الاذن فكانت مرحلة متأخرة زمنيا . كان لا بد من ان ينتقل الدماغ من المحسوس الى المجرد ، اي كان لا بد من ان تجره العين وراءها ، قبل ان ينتبه الى ما تقدمه الاذن ، ان العين اشد « محسوسية » في ابصارها ، من الاذن في سمعها ، والحقيقة انه لابد من تنظيم الاشياء قبل فهم ما يكمن وراءها ، لابد من التعامل معها قبل « فلسفتها » .

الفيتيشية من عمل العين ، من معلوماتها التي قدمتها الى الدماغ . اما الارواحية فمن عمل الاذن ، من المعلومات غير اليقينية التي قدمتها الاذن الى الدماغ . وأول صوت قدمته الاذن الى الدماغ ، ولم يستطع أن يتبينه كان صوت الريح . وهو صوت متلون متقلب ، يكاد يشبه احيانا صوت الانسان ، ويتغير فيشبه الولولة والكركرة والصفير

والدوي ... كان صوتا خفيفا ، فكان لا بد من ان يقوم الدماغ بعملية اسقاط بعض الصفات التخمينية على الريح . والمعتقد انه كان يفصل الرياح عن الاشياء اول الامر ، ثم جمع بين الاثنين ، ولم تعد الفيتيشية تعني قوة الاشياء في ذاتها ، بل تستمد هذه الاشياء قوتها من الريح التي في داخلها ، والريح تغلف كل الاشياء وتهزها وتحركها ، وتقتلعها احيانا، فدخول الريح في الاشياء يعني منحها القوة ، وبهذه القوة تفعل الاشياء عجائبها وسحرها .

والريح هي الروح في جميع الاديان والمعتقدات القديمة . فالله جبل الطين ونفخ فيه من روحه وصنع آدم . وتلك التي احصنت فرجها فنفخ فيه الله من روحه . ولو ان الريح ممثلة بشيء من الاشياء لكانت اولى المعبودات . كيف لا تكون اولى المعبودات ، والمرء يلاحظ ان اي شخص لايعتمر صدره بالريح ، يعتبر ميتا . واستخدام المرايا امام انف الصريع وفمه ، او وضع الاذن على القفا ، فللتأكد من وجود الريح او عدم وجودها . ولم تستخدم كلمة للدلالة على الحي مثل « نسمة الحياة » ، التي كانت من اول الكلمات المستخدمة وما تزال حتى الان تستخدم .

وقد يظن القارىء ان اللغة هي التي اوحت بذلك نظرا للتقارب بين روح وريح . ولكن لننظر في بقية اللغات ، فاننا سوف نجد الشيء ذاته ، فكلمة روح في الانكليزية (Spirit) جاءت من Spiritus اللاتينية ، ومعناها النفس او التنفس . وكذلك كلمة روح الفرنسية... التي لا تختلف عن بعض اللغات الاوروبية الاخرى .

وكما تتشابه الروح والريح من حيث اللفظ ؛ كذلك النفس (بتسكين الفاء) والنفس (بفتح الفاء) . وسواء اتشابهت الاحرف أم لم تتشابه فان المعنى واحد في اللغات الاوروبية ، وغير الاوروبية ، فكل مادل على ريح استخدم بمعنى حياة .

ونظن أن الاصوات الانفعالية كالبكاء والضحك والنفخ والصفير والولولة . وجميع الاصوات التي من شأنها تدريب الجهاز الصوتي ، انما كانت تقليدا للريح . وتشكل تلك الحركات الصوتية الاصوات الكبرى الاولى التـي فعلت فعلها في هندسة التجاويف المساعدة على الغناء والايقاع والنطق ... وتحويل اللسان الهضمي الى لسان نطقي .

من النطق من جهة . وادخال الارواحية في الفيتيشية ، من جهة اخرى . انبجست الاسطورة . فالاسطورة جاءت بعد الايقاع والنغم . او بالاحرى حين دخل النطق ليساعد الاشارة في التعبير .

اننا نرجح ان تكون الاسطورة قد بدات بالالهة الصغيرة . والاغلب ان تكون تلك الالهة الصغير قد انبثقت من الريح . الريح هي كل شيء . وتدخل في كل شيء . هي الروح لكل شيء . فهي التي تدفع الغيوم وتحدث البرق وتحرك الشجر وتثير البحر وتفضن صفحة المياه الراكدة . وهي التي تصنع العاصفة والصاعقة . وهي التي تئز وتجأر في الوديان والكهوف . وتتدحرج على اعالي الجبال وتلطم الينبوع وتدفع الساقية .

وما النار التي خدمت الانسان وارتقت به سوى هدية قدمتها الريح . انها صاعقة جاءت بالنار .

وفي الريح نجد كثيرا من التعبيرات . واغلب الظن ان الانسان استعار كثيرا من اوصاف الريح ليستخدمها في بقية مجالاته . فالجنون والركون والتمايل والسكون والسرعة والبطء . والتهادي والتوقل والقعقعة والهيمنة والولولة والبكاء والضحك ... الخ كلها من الريح ... تلك التي منها انبجست الاسطورة .

دخلت الريح في كل شيء ، فحولت كل شيء الى حياة . والحياة تعني الحركة . والحركة تعني ان الاشياء فيما بينها صلات وعلائق ،

من غير أن تقتصر هذه الصلات والعلائق على المادي المحسوس . بل العكس : فالانسان ادخل الريح ، التي هي الروح ، في كل شيء : ليحرك المنظور بالمستور . لقد ابتدا الانسان بالميتافيزياء ليفهم الفيزياء ، ليجعل وجوده مفهوما .

لكل شيء اذن روح وتحولت الارواح الى آلهة : للنهر والجبل والوادي والبحر والصاعقة والعاصفة والشجر ... الخ . اما عندما يكون هناك شيء مجرد ، غير موجود في الطبيعة ، فلا بد من أن تقوم به الاشباح . والاشباح هي نفسها الارواح وقد فارقت تجسداتها . ان الريح عندما تدخل شيئا تصبح روحا ، وعندما تخرج منه تصبح شبحا . وبما أنها فارقت جسدها ، فانها لا تستطيع ان تتجسد : فتظهر او تتراءى على شكل ريح في الاماكن المظلمة والمهجورة ، ولها قدرة مثل قدرة الريح ، فتخترق الاشياء وتنفذ منها ، ولا يستطيع جدار او ستار او عائق ان يقف في وجه الاشباح ... انها كالريح . وفي الانكليزية ثمة تماثل بين الشبح والروح فعندما نقول (Holy Ghost) فاننا نعني هنا الروح (Holy Spirit) وكنا قد اشرنا من قبل الى أن الروح هي الريح .

وكانت الاذن مسؤولة عن القسم الاعظم في كل هذه العملية .

من الالهة الصغيرة تشكلت عائلات واسر وقامت صلات قرابة ، الى أن ظهر رب الارباب ، لافرق بين زيوس وجوبيتر ، وكرشنا واهرمن ... لا فرق بين ارقى « ميثولوجيا في أوروبا » ، و « ادنى » اسطورة في قلب افريقيا ، والقول بوجود رب الارباب أولا ، ومنه انبثق الكون والمخلوقات من آلهة وبشر وحيوان ونبات وبحار وانهار ... هو افتراض غير مقنع . لقد مرت مرحلة طويلة حتى تجمعت الجزئيات الاولية ، ومن بعدئذ تشكلت العائلات والاسر المقدسة .

ان دخول الارواح في الفيتيشية ، اي ادخال الاذن في العين ، اسقاط السري في العلني والمخفي في المتجلي ، جعل من الفيتيشية طوطمية كاملة . امتدت فشملت كثيرا من مظاهر النبات والحيوان . وبظهور الطوطمية ظهرت العبادة والطقوس المتنوعة والمتعددة . وما تزال الاعلام الخفاقة التي ارتسم عليها نسر او نجم او سيف او هلال ، تشهد على انصرام مرحلة بغاية الاهمية في تاريخ البشرية .

لقد ذهبنا الى ان العائلة المقدسة للآلهة تكونت بعد ان ظهرت الالهة الصغيرة والوسطى ، ثم وزعت في اسر وظهر في رأس كل اسرة إلـه كبير . وفي النهاية ظهر رب الارباب . ولم نذهب مذهب القائلين بتصور رب الارباب اولا ثم انبثاق كل شيء منه . لقد اعتقدنا انه لا بد من ظهور الاسر والعائلات في الارض قبل الاولمب او قبل السماء .

الا ان هناك رأيا ينقض المذهبين المفسرين للاسطورة ، وهو رأي في غاية الطرافة والمعقولية ، طرحه لويس هورتيك في كتابه (الفن والادب) وترجمه الدكتور بدر الدين القاسم الرفاعي . وسوف انقل مقطعا من الصفحة الثانية والخمسين :

« واحيانا يفنى مجتمع ، وتنطفىء انوار احدى الحضارات ، بعد أن اجهدها مرض دفين أو ألمت بها كارثة . ويشمل كتاب الانسانية العدد الكثير من هذا النوع من المحن . فيحدث انقطاع في مجرى التاريخ . ويمحي الزمن ما نقشه البشر في المادة ويطمسه . وعندما تدب الحياة من جديد ، تجد الاجيال الجديدة نفسها قبالة اطلال مشوهة ، ممسوحة ، يستعصي عليها فهمها . لكنها مع هذا اعمال انسانية لا ريب فيها . فيتوق لها فضولنا . ولابد لنا من استكشاف مدلولها . وتزدهر الاساطير حول تلك الخرائب . وتبقى الحجارة المنقوشة لا يعتريها البلى ، فيما وراء فترات الركود أو النشاط التي يجتازها التاريخ . وتظهر لنا المدافن والقصور المتداعية ، وقواعد الابنية التي

لا نستبين لها شكلا ، كأنها نداء انساني شحن طاقة عاطفية . او رمس قديم له جاذب فني » .

ويؤيد هذا الراي ما يرويه ول ديورانت في قصة الحضارة « حياة اليونان » ، عن اكتشافات هنريخ شليمان في الحفريات التي قام بهـا بحثا عن مدينة طروادة وقبر آغا ممنون . وقد افلح وعثر علـى كنـوز يرجع أن يكون تاريخها قبل الزمن الذي كتبت ، او انشدت فيه الالياذة والاوديسة بزمن طويل . لقد اكتشف حضارة مدفونة هي حضـارة مسيني . وقد ارسل الكنوز الهائلة التي عثر عليها الى برلين سرا . وهناك حلل المختصون الكتابات والنقوش وانتهوا الى ان زمن هـذه الحضارة يرجع الى ما قبل زمن الالياذة والاوديسة بكثير .

ان ما يذهب اليه هورثيك : الذي اطلع ولا شك على نتائج حفريات شليمان في القرن التاسع عشر . هو ان الاساطير تنشأ في اعقاب حضارة مندثرة ، تنشأ على اطلال هذه الحضارة من قصور وحجارة ومقابـر وتماثيل ، في محاولة لتفسير تلك الاطلال من قبل الاجيال الجديـدة الناشئة في اعقاب الاندثار .

ان هذا التفسير يغري المرء جدا . وهو ، على اي حال ، ليس اشد اغراء من التفسـير الذي يرى ان الحضارات التي شيدت على هذه الارض انما هي من صنع كائنات اخرى من غير هذا العالم . فالاهرامات المصرية والمكسيكية (حضارة المايا) دليل على ان ثمة غزوا حضاريا من العوالم الاخرى ، والا لما اخذت الحضارات القديمة الراقية تتقهقر . ان تقهقرها كان بسبب عودة الغزاة . ويستندون على الاساطير في اثبات ذلك ، فزجاج التكتاتيس الذي وجد في ليبيا واندونيسيا واستراليا هو بقايا الزجاج الذي لفظته المركبة الفضائية قبل ان تهبط ، لتامين هبوط آمن ، او اقلاع آمن . ولقد تحدثت اساطير الاقدمين عن « القلعة الطائرة » و « القلاع المحلقة » في القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد . والا كيف نفسر وجود هذا الزجاج الذي لامثيل لـه في الارض ، ولـم

يستطيع احد ان ينتج حتى الآن مثيله . فالكائنات الغريبة في الاساطير هي كائنات واقعية رآها سكان الارض وتحدثوا عنها وعن صراعاتها وافنائها لبعضها . وقد افنى الغزاة بعضهم ولم يبق منهم سوى سجلهم ... الاساطير ... او انهم عادوا من حيث اتوا مخلفين لنا تلك الاساطير الغريبة .

يلتقي التفسيران في نقطة الحضارة المندثرة هي التي فجرت خيال الانسان ، على الرغم من اختلافهما في بقية النقاط .

ولكن لماذا ننتظر اندثار الحضارات حتى نحصل على الخيال الجامح؟ الا يمكن ان يكون فقر الواقع ، وليس غناه ، موثبا للخيال الذي يسعى الى اكمال هذا الواقع بما ينقصه ؟ ثم الا يمكن ان نسند الى الخيال وظيفة خلق سببية معينة لقيم الواقع بغية الاتزان معه ؟ اليست غرابة الوجود الارضي والكوني سببا كافيا لانفجار الاسطورة حتى ننتظر الفجوة الحضارية ؟ وقبول ماترويه الاساطير عن بساط الريح والقلاع الطائرة، على انه حقيقة ، قضية يصعب اثباتها .

لقد ابتعدنا عن الموضوع قليلا او كثيرا . وسوف نعود لنؤكد ان القضية ، في نهاية الامر ، هي قضية موقف . فاذا اتخذنا موقف الرفض من النظرية التطورية ، فتحنا الباب عريضا لمختلف التفسيرات . اما اذا انطلقنا من موقف قبول النظرية التطورية ، فان الاساطير تنبجس من تطور الجسد ، ومواجهته المتشابكة والمعقدة للواقع .

اننا نرى ان العمليات المتضافرة المركبة للعين واليد والاذن واللسان النطقي ، تحت اشراف الارغن الدماغي ، هي التي ولدت الاساطير .

بالطبع لا يمكن خلق الاساطير من دون لغة . ولا يهمنا اذا كانت الاساطير التي قد يكون الانسان الاول قد شعر بها شعورا شموليا ،

قد ساعدت على تقويم اللغة ودفعها الى الامام ، بل يهمنا ان ندرك ان اللغة هي التي اوجدت الادوات التي حاكت الاساطير ... ان اللغة بحد ذاتها أشبه باسطورة .

ومثلما ساعدت اللغة الاسطورة اغنت الاسطورة اللغة ، بل يذهب بعض الباحثين الى ان للاسطورة لغتها الخاصة ، فالاسطورة هي التي اوجدت التقاويم واسماء ايام الاسبوع ، وربما هي خلقت الاحساس بالزمن . ان سرد الاسطورة لا يتم من غير ترتيب الاحداث . والترتيب يعني الزمن (راجع كتاب « ابطال وآلهة وهولات في الاساطير اليونانية » تأليف برنارد افسلين ، بالانكليزية ، طبعة بنتام ، آذار ١٩٧٥ فصل « الميثولوجيا تصبح لغة » ص ٢٠٧) . ان معظم الاسماء والافعال جاءت من الاساطير . فالصوت والصدى والغدير والنرجس والصبار واسماء النجوم والكواكب والجبال والوديان ومصطلحات الموسيقى القديمة والادوات المستخدمة للصيد وبعض المشروبات ... الخ واطلاع القارىء على كتاب افسلين يقدم له معلومات عن مدى تأثير الاسطورة ، ليس في اللغة وحدها ، بل في التصرفات اليومية والاخلاق العامة ، حتى يكاد المرء يتوهم ان الاسطورة هي رحم الحياة واللغة والوجود .

قلنا من قبل ان العملية التضافرية التي لعبت فيها الاذن دورا كبيرا، حولت الريح الى اسطورة . وكان الظلام ، او الليل الحاضنة الرؤوم لانبجاس الاسطورة الذي ــ كما نظن ــ ترافق مع ظهور النطق واللغة . وقد فجرت اللغة نظاما اسطوريا واسعا جدا . لقد كانت الاسطورة كل شيء تقريبا .

الا ان الاسطورة التي تولدت من الريح وزاد الليل من سيطرتها ، ظلت ملتصقة بأساسها ، وهو الريح التي تعني الروح . وبالاعتماد على الثنائيات الضدية يمكن ان نلاحظ الركنين الاساسيين اللذين شكلاالعقيدة الاسطورية ،واللذين تولدا عن الريح . ان وجود الريح في صدر الانسان يعني انه قابل للحياة ، وخروجها الاخير من الصدر يعني الموت . وبين

الحياة والموت قامت شبكة من العلاقات المتداخلة . فأين كانت الروح قبل الحياة ، وما مصيرها بعد الحياة ؟ وهذه الروح/الريح من اوجدها، ومن جعلها نسمة الحياة ؟ ماطبيعتها وما كنهها ؟ هل تدخل في تركيب الكون فتشكل روحه ام انها مقتصرة على الانسان ؟ وهل يمكن تصور الكون من غير ريح ؟

ان الريح ، بثنائيتها الضدية : الروح والموت فجرت أعظم ثورة انفعالية تأملية ، تعتبر حتى اليوم ركنا وطيدا من اركان الابداع الادبي. وبما اننا سوف نتحدث عن الموت حديثا مطولا ، وكيف اسس الاحساس بالخلود وخلق غريزة الحياة وغريزة السعي الى كل ما من شأنه التخليد، فاننا نعود الآن الى الريح .

كان لابد من ايجاد تفسير للثنائية الضدية للريح . لابد من ايجاد الايروس والثاناتوس . ونعتقد ان هذه الثنائية الضدية التي ابدع فرويد في العزف عليها ، موجودة لدى معظم الشعوب . ويكفي ان نطالب القارىء بالعودة الى أهرمن واهورا مزدا ، الى ثنائية الخير والشر ، ثنائية النور والظلام ، الى ميخائيل رئيس الملائكة وبلعزبون كبير الابالسة ، حتى نتحقق من مدى شمولية هذه الثنائية الضدية .

ولابد لهذين الضدين المتقابلين من جهة ، والمتعايشين من جهة ثانية، من ان يفضيا الى نوع من التركيب الثنائي ذي الاحتواء الكامل على العناصر الضدية . ان عالم الجن لا يعدو ان يكون التركيب الناجم من الاطروحة ونقيضها ، فالجني ليس شريرا ، ولكنه ليس ملاكا ، يحنو على البشر ، ولكنه يؤذيهم اذا ما غضب ... وهذا ما جعل الفلاسفة يطرحون السؤال المحرج : هل المقولات المنطقية قبلية في العقل ، ام ان العقل عاينها في الطبيعة واستخلصها منها؟ هل الاطروحة والنفي والتركيب عملية طبيعية ام ذهنية ؟ وكيف يحدث النفي ونفي النفي ؟

لندع كل هذا ولنرجع الى الريح التي صارت روحا والروح صارت حياة ، وخروج الروح من البدن يدفعه الى الموت ، بل ان خروج الروح من اي شيء يدفعه الى الموت . الحيوان والنبات وكل ما يدل على ذبول من عناصر الطبيعة .

والموت هو المرقاة الكبرى نحو التجريد ، فمنه انبثقت فكرة خلـود الروح ؛ والا كيف تزورنا اطياف الموتى ؟

نحن هنا ايضا امام ثنائية ضدية متبادلة ، فالموت والحياة ضفيرة ثنائية يصعب فصل احد مكونيها . ولهذا كثرت في الاساطير مسألةالعودة من عالم الاموات الى الحياة . وعلى الرغم من فشل بعض المشاريع ، كفشل أورفيوس في استعادة زوجه من عالم الموتى، فان الهاجس الروحي ظل يفعل فعله ، مما ادى الى قيام شبكة من العلاقات بين الموت والحياة ، كالتناسخ والتماسخ والتماهي . وعلى الرغم من وجود الكثير من العلاقات الاخرى بين مظاهر الحياة والطبيعة ، والكثير من التحولات والانتقالات من عنصر حياتي الى آخر ، فان التناسخ والتماسخ والتماهي تشـكل عصب الابداع الشعري ، هربا من الموت ، أو دفعا الى الموت من اجـل الحياة . وما اكثر ما تحدثنا الاساطير عن التناسخ بين كائن وآخر ، او تحدثنا عن مسخ كائن بتحويله الى كائن آخر ، او الى حجر او صخرة او او شجرة .... ، أو تحدثنا عن تماهي هذا الكائن بكائن آخر ، وعلـى الاخص في العهود الطوطمية،حيث كان الانسان يتماهى في الموضوع الذي يباشره ، فيتقمص شخصيته ، ويقوم بمعظم الحركات والتصرفات التي يقوم بها . وقـد اعتمد السحر على هذه العلاقات كثيرا ، فيكفي ان تطعن صورة الخصم بدبوس او خنجر حتى تقضي عليه .

والشعر اليوم يقوم بما كان يقوم به الانسان البدائي . انه لم ينس أصله ووظيفته ... لم ينس انه مخلوق روحي ، مهمته القيام بصياغة جديدة ، تتساوق مع روحه ، لهذا الكون المحيط به ، بناسه وحيوانه وطبيعتـه .

لنأخذ اي قصيدة او اي مقطوعة من اي شعر ، لاي شاعر ، ولنمعن في تناسخاتها وتماسخاتها وتماهيها : لننظر في المتحولات التي يقوم بها الشاعر ، والصياغة الكينونية التي تهدف اليها قصيدته ،نجد انه لتحقيق مشروع « روحي » : يسخر كل ما أوتي من طاقات البشرية الموروثة وكل ما امتلك من طاقات شخصية : فيقلب ويغير ويبدل ... يقوم بمهمة الساحر ... ليدعونا الى الدخول في مشروعه ... في كل قصيدة يجب ان تتحطم السدود والحدود بين العوالم ، مثلما في الاسطورة ، وبالتناسخ والتماسخ والتماهي ينطق الصخر وتتراقص الحجارةوتركض السحب ويصرخ النبات : ولا شيء يمنع من مسخ انسان او استنساخه، او تماهيه في سحابة او زهرة او حيوان ... ان الشعر مازال يحتفظ ، وهو الوحيد الذي يحتفظ ، بوحدة الوجود وتداخلاته .

ان القصيدة حفلة زار
والشاعر ضارب مندل
والقراء نظارة مستمتعون .

وسوف نبين فيما بعد كيف انطمر هذا الاساس تحت ركام منشبكة العلاقات الخارجية ، وفق بريق الوجود كما رسمته الاسطورة .

لقد خلقت الاسطورة ثنائية الثناتوس والايروس ، وقد تداخل هذان العنصران مع بعضهما تداخلا غريبا ، بحيث يأخذ كل واحد دور الآخر . فخاتمة الحياة الموت ، وخاتمة الموت الانبعاث . والقيامة في عرف المسيح هي أن تطأ الموت بالموت ، وفي كل الديانات نجد اقرارا بأن من طلب الموت كتبت له الحياة ، فالموت الدنيوي يقابله خلود أخروي . الا ان الانسان ، كما يبدو ، يريد المجد من طرفيه ، يريد خلودا في الدنيا، كما في الآخرة ... وكان هذا من أهم اسباب : ليس الشعر وحده ، بل الحضارة برمتها .

وقد انعكست ثنائية الاسطورة في الضديات اللغوية . ونكتفي بهذه الامثلة التي اوردها السيوطي في مزهره ، من جملة ما اورد : فالادواء مثلا ليس جمعا لداء فقط بل لدواء ايضا . والسليم لا يقال فقط للصحيح المعافى ، بل للمشرف على الهلاك ايضا . ونظرا لنفور الانسان من اللون الاسود ، اطلق عليه كلمة « الجون » التي تستخدم للبياض . ان الاسود في الاسطورة يمثل الكابوس والضبابية والخوف والمجهول . وعندما نصف انسانا بانه ذو قلب أسود ، نكون قد وضعناه في الدرك الادنى من الانحطاط . ويمكن ان يرجع القارىء الى المرجع المذكور ، ويتمعن في الضديات ، فيرى كون التنويعات المعتقدية وراءها . واي ادعاء بان كثرة القبائل ادت الى كثرة المفردات والضديات ، هو ادعاء غير كاف . ربما يفسر لنا هذا الادعاء بعضا من المترادفات ، وشيئا من الضديات . الا ان الامعان في الضديات سيبعدنا عن تصديق هذا الادعاء ، وسيطلعنا على انها تمثل مرموزات لعقائد عريقة .

ومثلما انعكست الثنائيات الضدية وتداخلت ، كذلك انعكس في اللغة تحطيم العوالم ونقل صفات هذه المملكة الى تلك وبالعكس ، فالشجاع اسد والبليد حمار، والقوام خيزران، والخدود ورود وهكذا . . لقد صنعت الاسطورة لغتها ومهرتها بميسمها . الا ان النشاط الذي قامت به اللغة من قلب وحذف وتخفيف واشتقاق وابدال وتغيير يجعل من العسير تلمس الموطدات الخلفية التي اقامتها الاسطورة .

وقد حاول كثير من نقادنا منذ مطلع الخمسينات متابعة أثر الاسطورة في الشعر العربي الحديث ، وظهرت الدراسات الكثيرة والمطولة عن شعر ادونيس والسياب ، اكثر من غيرهما . ومن اواخر ما اطلعت عليه ما كتبته ريتا عوض عن الموت والانبعاث . ولكن مثل هذه المتابعة ، او المتابعات تحاصر الاسطورة في اضيق مفاهيمها . ولو استعرضنا كل الدراسات منذ الخمسينات حتى اليوم ، لما خرجت عن متابعة اسطورة تموز وعشتروت وادونيس وبروميثوس وسيزيف ... وبقية الاساطير الاخرى .

وفي اعتقادي ان هذا المنحى في الدراسة لا يبين تأثير الاسطورة في الشعر ، بل يبين الاسطورة في الشعر . وعندما يأتي الشاعر بأسطورة ما ، مقتبساً او مشيراً او شارحاً ، فان تأثير الاسطورة في شعره لا يكون بالضرورة قوياً ؛ بل ربما كانت اشارته الى الاسطورة نوعاً من التوكؤ ؛ يلجأ اليه كلما خانه الاداء ، او خذلته اللغة ، او ، او ... الخ .

ان تأثير الاسطورة في الشعر يكون على غير هذه الشاكلة . ان تأثير الاسطورة يتجلى في أي انفلات من عالم الى عالم آخر ، من اي مملكة الى اي مملكة اخرى ، من اي طرف الى طرفه الضدي .. على نحو مابينا في هذا البحث .

ان محاصرة الاسطورة في قصتها فقط هو اجهاز على الاسطورة . وقد بينا من قبل كيف ان الاسطورة تتشكل من جزئيات فوق جزئيات ، حتى اذا تم شيء من التراكم نشأت القصة التي تلخص الخلفيات المتقدية . ان الاسرة المقدسة لم تظهر الا بعد مرحلة طويلة من تشكيل المفاهيم الكثيرة والمتعددة والمتنوعة عن مظاهر الحياة والطبيعة والموت والبعث وغير ذلك . ان الاسطورة مسؤولة كل المسؤولية عن تكوين النفس والمفاهيم والسلوك . ومن المعلوم ان الاسطورة لا توازي الواقع بحال من الاحوال ، كما انها ليست أدنى من الواقع . انها دائماً ارفع من الواقع ، او اعلى ، او فوق الواقع . ولو نظرنا في الانواع الادبية التي بين ايدينا في آداب اليوم ، لتبين لنا ان الشعر من بينها جميعاً يقوم بدور الاسطورة .... ان النثر لايستطيع الارتفاع على الواقع مالم يستمر من الشعر دوره الاسطوري . وقصيدة السياب « قصيدة الى العراق الثائر » التي جاءت بها ريتا عوض اقرب الى النثرية :

هرع الطبيب اليَّ وهو يقول : « ماذا في العراق ؟
الجيش ثار ومات « قاسم .. » اي بشرى بالشفاء

وقوله في نهاية هذه المقطوعة :

فلتحر سوها ثورة عربية صحق « الرفاق »

منها وخر الظالمــون ،

لان « تموز » استفاق

من بعد ان سرق العميل سناه ، فانبعث العراق .

يرتفع بالقصيدة عن مستوى النثرية ، ولا يكفي ان يذكر « تموز » او غير تموز حتى تكون القصيدة ذات لحمة اسطورية .. ان الاسطورة خرق للواقع ، تعلوه لتتحكم فيه ، وهكذا القصيدة . أما رسم الواقع فاظن انـه مهمة نثريـة ، لايحتاج الى عجائبية وثورانية اسطوريـة، فقد يستخدم لسانا عاديا في مخاطبتنا ، فيرضينا ويقنعنا ، ولكننا لانرضى ولانقنع بشعر لايخترق الواقع ليتحكم فيه .. ان الشعر مثل الريح التي تحولت الى روح ومن الروح انبثق كل شيء . ان السياب في قصيدته السابقة لم يخترق شيئا .. انها اشبه بخاطرة صحفيـة صباحيـة او مسائية ، لن يستطيع تموز ان يرتفع بها طالما انها على هذا النحو من النسـج .

وحتى تكون اكثر وضوحا نأتي بقطعة شعرية تعادل في الحجم قطعة السياب هذه . وهي مثلها « واقعية » جدا ، الا انها تخترق الواقـع وترتفع الى مستوى أعلى .. الى مستوى الاشراف على الواقع .القصيدة لابـن الدمينة :

الا ياصبا نجد متى هجت مـن نجـد ؟

لقـد زادني مسراك وجدا على وجـد

إن هتفـت ورقـاء في رونـق الضحى

على فنـن غض الاهـاب مـن الرنـد

بكيت كمـا يبكي الوليـد ولـم تكـن

صبورا وابديت الذي لـم تكن تبـدي

وقــد زعمـوا أن المحـب اذا دنــا
يمــل وان النأي يشفي مـن الوجـد
بكـل تداوينـا فلـم يشف مـا بنـا
على ان قرب الدار خـير مـن البعـد
علـى ان قــرب الدار ليس بنافــع
اذا كــان مـن تهـواه ليس بـذي ود

لقد اقـام علاقـة مع ريح الصبا وهديل الحمام وجعل من بيـت الحبيب مزارا ، يدنو منه ويبعد عنه والداء مازال في كبده .. وتنتهي هذه المقطوعة الجميلة ،وتبقى صورة العاشق المدنف معلقة في مخيلتنا،لانعرف إلام انتهت اموره ، ولا هو يعرف ماذا يفعل .. لقد احتضن الريح وبكى لهديل الحمام وتمسح بالاحجار واقترب من المزار ، ونأى عنه والعلة مازالت فيه ... انها عملية سحرية . ان القصيدة هنا تقدم لنا طقوس الزار ، وترتفع الى مستوى اعلى بكثير من الواقع الذي انطلقت ، ولابد ان تنطلق . منه . ومع ذلك لانجد ذكرا لالتموز ولا لاي رمز من الرموز التي تدل على اسطورة بعينها . ان الاسطورة هي تمثل للعالم مـن فوق، رؤيته من عل . ولا يرتفع الشعر لمجرد ذكر هذا العلم او ذاك مـن اعلام الاسـاطير .

< ✿ >

من يحكم أمريكا؟

« شواهد عن الاعلام الاميركي »

يحيى العريضي

تكبر امال بعض العرب ، من ساسة ومسيسين مغرر بهم ، وتزداد رهاناتهم يوما بعد يوم ـ وبشكل صارخ ـ على امريكا ودورها في « ايجاد حل لمشكلة الشرق الاوسط . »

لم تعد محاولات هؤلاء الساسة سرية ، ولم تعد نواياهم للارتماء في احضان امريكا خفيه شعارهم المطروح على الساحة العربية الآن :

« هموا أيها العرب ، والا فاتكم قطار امريكا للسلام ! » .

لاتوجد أمة على وجه المعمورة اكثر تعطشا للسلام من الامة العربية، ولكن اذا اردنا ، كأمة ، أن نستجيب لدعوة هؤلاء الساسة ، الا يجب علينا أن نسأل انفسنا بعض الاسئلة عن طبيعة هذه الرحلة في قطار أمريكا ؟ الا ينبغي علينا أن نعرف ، وبتأكد ، طبيعة رحلة ستقدم لنا خلالها ، وجبة سلام ، على صحن من ذهب ؟ اليس حريا بنا ان نعرف كيف يفكر من خطط ومن سيقود رحلتنا هذه ؟ وبدقة أكثر ، اليس من الواجب علينا أن نعرف منابع ووسائل تغذية دماغ المواطن الامريكي منذ بداية مشاهدته افلام الكرتون ، مرورا بكتب الحضانة والابتدائية في الطفولة ـ ثم قراءته الكتب والصحف والمجلات ، وسماعة اخبار الراديو والتلفزيون في المراحل الثانوية والجامعية ـ وحتى دخوله الحياة العملية في المصانع والشركات والمدارس والبنتاغون ووزارة الخارجية او حتى البيت الابيض .

لنتعرف معا على هذه المنابع والوسائل التي تشكل الزاد الفكري للمواطن الامريكي ، وخاصة تصوره عن العالم الخارجي . لنتعرف على انواعها وطاقاتها واهدافها والايادي التي تتحكم بها . وبذلك نعرف من يخطط لرحلتنا هذه ، ماذا يبغي ، وعلى اي شيء يستند لتنفيذها . واترك للقارىء أن يستنتج ماستؤول اليه هذه الرحلة في قطار السلام الامريكي .

لايوجد قوة على الساحة الامريكية اضخم من تلك التي يتمتع بها المتحكمون بالرأي العام الامريكي . لم يكن للباباوات ولا للملوك ولا لاعظم الفاتحين قوة كتلك التي تمتلكها مجموعة من الناس تسيطر على الاعلام الامريكي . وقوة هذه المجموعة مباشرة ومحسوسة ، فهي تصل الى كل بيت في أمريكا ، تملي ارادتها على كل مواطن طيلة معظم ساعات يقظته، وتبرمج حياته ودماغه كما تريد .

ولا يقتصر تأثير الاعلام الامريكي ، بوسائله ومواده المختلفة (تلفزيون ، راديو) صحف ، مجلات ، وكتب . . .) على برمجة حياة المواطنين اليومية، بل **يزرع تصورات** معينة ومحددة عن العالم في أذهانهم، ثم يضيف الى ذلك **قوالب جاهزة** ، توحي لهم **كيف يفكرون** بما قدم لهم، **بشكل يحول بينهم وبين الحقيقة .**

ولو كانت هذه البرمجة وهذه التصورات وهذه القوالب الجاهزة عادلة وموضوعية لكانت الامور بخير ، ولكن اسياد الاعلام **يقزّمون ويشوهون** وحتى يخفون اخبارا وحقائق كثيرة ـ خاصة عندما تكون مضرة بمصالحهم ـ ولا يقدمون للمستمع او القارىء الا ما يريدون وما يخدم مصالحهم الخاصة .

اسياد الاعلام ومستخدموهم ، من كتاب ومخرجين ومراسلين ومذيعين ومعلقين ، يعرفون بدقة وبراعة الخبر الذي يريدون بثه ، واية نقطة يجب التركيز عليها او اهمالها ، وأي صور او عبارات يجب أن تختار ، وحتى نبرة الصوت ، عند تقديم خبر ما ، تعطى اهمية فائقة. كل ذلك تتم دراسته بشكل علمي فائق .

المكر والخبث في منهج الهيمنة الفكرية هذا لايكمنان فقط في ان سادة الاعلام يسيطرون على اذهان الامريكيين ، بل يكمنان ايضا في قدرة هؤلاء على ضبط وحصر آراء واجتهادات مستخدميهم ومرؤوسيهم من خلال اجبارهم على التقيد بقواعد وحدود (خفية) رسموها لهم .

قد يقول قائل بانه لا توجد دولة في العالم تتعدد فيها مصادر الاخبار والمعلومات مثل الولايات المتحدة الامريكية . وقد يقال ايضا ان امريكا بلد الحرية الاعلامية وحرية الكلمة : فالمستمع الذي يشك بصحة او موضوعية اخبار محطة ما ، بامكانه الاستماع الى محطة اخرى او قراءة مصادر اخرى . أقول لمن قد يقول ذلك : ان حرية الاعلام في امريكا هي حرية أسياد الاعلام انفسهم . وليست حرية

المستمع الضحية . فهؤلاء الاسياد يمتلكون كل وسائل الاعلام تقريبا بشكل مباشر أو غير مباشر . وما تعدد مصادر الاعلام الا وهم هدفه استكمال عملية الهيمنة الفكرية . المصادر مختلفة ولكن النتيجة واحدة. وهنا ينطبق على هذا المستمع أو القارىء المثل القائل : ان كان كما فانا اربح ، وان كان رأسا فانت تخسر .

من هم هم هؤلاء الاسياد المتمتعون بهذه القوة الجبارة ، وما اسم هذه المؤسسات التي يسيطرون عليها ، وماذا يطالنا من ذلك كعرب ؟

سابدأ بالاجابة على الشق الاخير من هذا السؤال . وذلك بتقديم عرض للطريقة التي يغطي بها اعلام هؤلاء الاسياد منطقة الشرق الاوسط، وبدقة اكثر : كيف يصور العرب والاسرائيليون في الاعلام الامريكي .

يبدا الاعلام الامريكي تنفيذ منهج الهيمنة الفكرية على المواطن الامريكي منذ نعومة اظفاره . وحتى وصوله اعلى درجات السلم الاجتماعي . فكيف يتكون تصوره عن العرب والاسرائيليين ؟

يشاهد الطفل الامريكي قبل فترة الحضانة وخلالها بعض افلام الكرتون التي تقدم له شخصيات منها الابطال ومنها الاوغاد . يبدا الطفل عملية التمييز بين الصالح المحبوب والطالح المكروه . او غاد الفيلم ملامحهم عربية ويرتدون كفية و « دشداشة » احيانا . يتحايلون ويخادعون ، يقوم احدهم باهداء ساعة بد لبطل الفيلم ، يكتشف بانها قنبلة موقوتة . هذه الصور تعزز في ذهن الطفل الامريكي كراهية واحتقارا للشخصيات الوغدة التي يشاهدها على الشاشة الصغيرة .وما ان يبدأ عملية تعلم القراءة في الحضانة والابتدائية حتى تبدا بعض كتب الاطفال عملية تصوير شخصيات مشابهة لتلك التي شاهدها على التلفزيون ، مضيفة الى ذلك قصص اخرى كقصة « الشيخ الزائف The Phoney Sheikh » يقابلها قصة لبطله المحبوب « لترمان » — Letterman يدعم ذلك صور كاريكاتورية لعربي يسرق الديك الرومي الذي ستأكله اسرة امريكية في عيد الشكر .

وهناك صور أخرى تعرض عليه شيخا ملطخا بالنفط ومحاطا بعدد من النساء وعلى ظهره كيس من النقود .

وحتى في تعليم الحروف الابجدية وتشكيل كلمات منها ، يأخذ العرب نصيبهم من التشويه فالعربي يصور له على انه جشع . ومعنى هذه الكلمة بالانكليزية Greedy

لنتمتع مع بعض الاطفال الامريكيين بالاغنية التالية التي يقال لهم ان الامهات العربيات تغنينها لاطفالهن :

للذهب في خزائننا ....
-- G is for goldin our closet
للياقوت في ايادينا ...
-- R is for the rubies in our hands
لالم آذاننا من لعنكم ايانا
-- E is for the Earhart by your cursing us
للقوة الطائلة لرابحنا ...
-- E is for the Earning power so grand
للاسعار الباهظة التي تصلنا ...
-- D is for the dirty prices we charge
لاجل تعثير دولاركم من قبلنا ...
-- Y is for your dollars misery

(الترجمة بتصرف)

قد يحاول التلميذ البحث عن كلمة « عربي ، » Arab في قاموس ما ، فيجد ان هذه الكلمة معروفة في بعض قواميس الاطفال على انها تعني : Tramp أو Bum أو Vagrant (سأترك للقارىء ايجاد معنى هذه الكلمات .)

حتى تكتمل صورة الانسان العربي في ذهن هذا الطفل ، لابد لهؤلاء الاسياد من اضافة بعد آخر للشخصية العربية الا وهو « الارهاب » .

ففي احدى المجلات الواسعة الانتشار والتي توزع على معظم المدارس الامريكية (The Weekly Reader) يطالع التلميذ صورا للعرب كشيوخ بشعين مضحكين اوغاد مخادعين ثم يقرأ ان كاريكاتور المجلة الذي نال الجائزة الاولى هو صورة للعرب يستعدون لخوض الحرب العالمية الثالثة .

وما ان يتخرج التلميذ من الثانوية ويبدأ دراسته الجامعية ــ حيث يكون قد امضى وقتا في مشاهدة التلفزيون لايقل عن الوقت الذي قضاه في المدرسة ــ حتى تبدأ رحلته مع المسح الدماغي المتطور من خلال تنفيذ أسياد الاعلام لمنهاج الهيمنة الفكرية . يشاهد الآن أفلاما مثل Rollover الذي يوحي له ان العرب سيحطمون طريقة الحياة الامريكية بمعاملاتهم المادية المشبوهة . ويأتي فيلم Black Sunday ليعزز له فكرته عن العرب بأنهم ارهابيون ، حيث يصور له مجموعة من الفلسطينيين تحاول اغتيال الرئيس الامريكي . ثم يأتي فيلم Ashanti ليريه « وحشية العرب وعنصريتهم » من خلال تصويره لشيخ عربي يستعبد السود الابرياء في سوق نخاسة في السعودية .

ثم تقدم له أفلام مثل Haren و Death of Princes لتكرس في ذهنه « تخلف العرب الحضاري والانساني » .

أما اذا أراد ان يطالع بعض الكتب او الروايات ، فلا بد ان يقع نظره على احدى الروايات التي اعتبرت من اكثر الكتب رواجا في الاسواق الا وهي رواية The World Rapers للكاتب Jonthan Black الذي يصور له أمريكيا من أصل عربي يغتصب النساء منذ أعوام عديدة . وكان هذا قد ورث جريمة الاغتصاب عن ابيه العربي ، وسيورثها بدوره الى ابنائه الذين سيطورون تكنيك الاغتصاب الذي اتبعه والدهم . وهذا الشخص ايضا قاتل للنساء اليهوديات واطفالهن . اخوه مجنون واخته عاهرة .

يرافق تطور واتساع معرفة المواطن الامريكي الفكرية تطـور وتحديث لمنهج الهيمنة الفكرية المتبع ، وخاصــة في الامور السياسية الحساسة ، فبعد ان يزرعوا في ذهنه منذ الطفولة شخصية العربي المتوحش والمتخلف وصورة الاسرائيلي الوديعة الديمقراطية ، يقولون له الآن « انه كما احتاج استقلال امريكا نضـالا مريرا ، كذلـك تستحق اسرائيل نيـل الدعم والحماية من امريكا » (بالمناسبة ، اذكر القارىء بانه يحق للمواطـن الامريكي التطوع في الجيش الاسرائيلي ، ويحظر عليه التطوع في اي جيش آخر غير امريكي) .

ويستمر المسح الدماغي ، وتقول له محطة الـ CBS ان « اسرائيـل محاطة بدول عربية معادية » وان « منظمة التحرير الفلسطينية تقتـل أطفالا وشيوخا ونساء » (محطة الـ CBS ، آذار ، ١٩٨١) .

أما محطة الـ ABC فتقدم له في احد اشهر برامجها الاخباريـة (تونتي / تونتي / ٢٠ / ٢٠) مشهدا عن فلسطينيين يحتجزون رهائن ويهددون بتفجير خزان وقود سيودي بحياة الملايين من سكان مدينـة نيويورك . (آب ١٩٨١) .

وتشترك الصحافة مع التلفزيون والراديو ويقدمون له فيضا جديدا من الافكار ، فمثلا يقال انه ما يدور في لبنان منذ منتصف السبعينات هو صراع بين المسيحيين والمسلمين ، وبذلك يذكرونه بشكل غير مباشـر بالحروب الصليبية ويحثونه على التعاطف مع المسيحيين في لبنان .

ولا يتلاعب الاعلام بالحقائق فقط ، وانما يقوم بتقديم صور والفاظ مشابهة لتلك التي تستعملها اسرائيل ؛ فحرب تشرين هي حرب « يوم الغفران» والعرب شنوا حربهم على اسرائيل في ذلك اليوم المقدس لليهود. ويقولون ايضا ان « القدس عاصمة لاسرائيل » والضفة الغربية اسمها « جوديا والسامرا » .

دور كبير تلعبه في هذا المجال المحطات الاعلامية الدينية التي تزرع في اذهان الملايين من المسيحيين قداسة خاصة لاسرائيل وتشويها خاصا لكل من يعاديها .

حتى المقابلات التلفزيونية حول الصراع العربي الاسرائيلي والتي يتسلح بها أسياد الاعلام على انها دلالة على ديموقراطيتهم وعدالتهم ، من خلال اعطائهم فرصة للعرب للتعبير عن آرائهم ، تكون اشبه بمحاكمات (انظر مقال للكاتب نشر في العدد ٢٧٢ من مجلة المعرفة)(١) .

ومن يراقب الاعلام بشكل مستمر يعرف تماما انه لا يمر شهر او اسبوع ، أو حتى يوم واحد في بعض الاحيان ، الا ويذكر المواطن الامريكي بطريقة مباشرة او غير مباشرة بما حدث ل « شعب الله المختار » في المانيا على يد هتلر ، وتمر ايام واسابيع وشهور واحيانا سنون ، ولا يعرف المواطن الامريكي ما يحدث ل « شعب الله المختار » (بالتحاء) على يد « شعب الله المختار » في الشرق الاوسط .

شاهدنا الاخير على ممارسات الهيمنة الفكرية التي يقوم بها هذا الاعلام هو تغطيته لغزو اسرائيل للبنان . لقد سمع الكثيرون العبارات التالية تتردد في الاعلام الامريكي المرئي والمقروء :

« تقصف الطائرات الاسرائيلية مواقع الفلسطينيين في جنوب لبنان، ردا على قصف الارهابيين للمستوطنات اليهودية في شمال اسرائيل » (صحيفة نيويورك تايمز ٥ حزيران ١٩٨٢) . وكان للعبارة التي استعملها الاعلام الصهيوني لوصف الغزو « سلام الجليل »

---

(١) هذا البحث يشكل الاطار الواسع لرسالة دكتوراه يكتبها . كاتب هذا المقال حول « الاستراتيجيات التخاطبية اللغوية المستعملة في مقابلات تلفزيونية امريكية حول الصراع العربي الاسرائيلي » . يجري المقابلات مراسلون امريكيون مع ساسة عرب واسرائيليين .

(Peace for the Gallili) نصيب من الترداد في بعض الابواق الاعلامية الامريكية . وكذلك عبارة : « **يخيم الهدوء على المستوطنات اليهودية في شمال اسرائيل** » ، « مرة اخرى اسرائيل تثبت قدرتها بالدفاع عن مواطنيها وردع الارهابيين . »

أعرف تماما بأن كثيرين سوف يقولون بأن تغطية الاعلام الامريكي للعرب وللاسرائيليين قد تغيرت ، وخاصة خلال وبعد غزو اسرائيل للبنان . وردي على هؤلاء هو التالي :

ــ اولا : اتصور ان القارىء قد استنتج من خلال ما ورد حتى الآن عن منهج الهيمنة الفكرية المتبع ، بأن من رضع حب اسرائيل مع حليب امه يصعب عليه تغيير وجهة نظره بين يوم وليلة .

ــ ثانيا : **على الرغم من ان ما حدث في لبنان كفيل ، ليس فقط بتحطيم صورة اسرائيل (« الحمل الوديع المسالم المهد المقدس ... ») بل بتحطيم صورة الملائكة لو فعلوا ما فعلت اسرائيل في لبنان ، ولكن اسياد الاعلام الساهرين والمسخرين للعقول العبقرية استطاعوا ان يوظفوا كل ما لديهم للحفاظ على صورة اسرائيل . وهذه بعض الاستراتيجيات التي استعملوها :**

١ ــ تصوير الغزو على انه «انقاذ لبنان من الارهابيين الفلسطينيين . » « عملية دفاع عن النفس ضد هجمات الفلسطينيين على مستوطنات اسرائيل في الشمال » « بعض العرب المعتدلين يحبذون بداخلهم فكرة انهاء الراديكالية الفلسطينية التي تشكل خطرا عليهم » . ومن المعروف ان « المعتدلين » محبوبون في امريكا .

٢ ــ التمييز بين الحكومة الاسرائيلية و « **الشعب الاسرائيلي** » . وتصوير الاخير على انه غير موافق على بعض ما تتصرفه القيادة العسكرية الاسرائيلية في لبنان . ويستشهدون ببعض المظاهرات التي قامت في اسرائيل واعتبارها شاهدا على ديموقراطية واخلاقية الشعب الاسرائيلي .

(اظن انه لا يخفى على احد ان معظم تلك المظاهرات قام بها اهلنا في الاراضي المحتلة .) **ولكن المستمع الامريكي لا يعرف ذلك .**

٣ ـ **ولم يهن عليهم تحميل مسؤولية الاعمال الشائنة في لبنان للحكومة بالكامل** ولكنهم حصروا ذلك **بوزير الدفاع الاسرائيلي** « شارون » واعتبروه مهندس العملية من اولها الى آخرها .

(والآن ، وبعد مضي اكثر من عامين يأتي « شارون » الى امريكا ، يحاول اثبات براءته من جرائم ارتكبت . واسياد الاعلام مستعدون لان يضحوا بأحد مصادرهم الاعلاميـة « مجلة تايم » للحفاظ على سمعة شارون) .

٤ ـ حتى مذابح صبرا وشاتيلا تمت تبرئة اسرائيل منها ؛ ليس فقط هذا ، وانما استغلت لصالح اسرائيل . فقد قيل للانسان الامريكي ان العرب منذ بداية التاريخ يقتلون بعضهم البعض ، وليس غريبا ان تثار الكتائب اللبنانية لقتل الرئيس بشير الجميل بالقيام بقتل الفلسطينيين . اما استعمال ذلك لصالح اسرائيل فكان مـن خلال التركيز على المظاهرة التي قامت في اسرائيل والتي اعتبرت اسطورة في امريكا . فيقول « تيد كبل » في برنامجه الاخباري Nightline من محطة الـ ABC هذه شهادة حية للتاريخ على اخلاقية ونظافة يد اسرائيل وديمقراطيتها ... ايلول ١٩٨٢ .

٥ ـ امـا خروج بعض المراسلين والمطلقين عـن القواعد والضوابط المرسومة لهم من قبل اسيادهم ، حين كانوا ينقلون اخبار الغزوالاسرائيلي للبنان . فكانت نتيجته سيلا من الاحتجاجات والتوبيخات مـن قبـل محبي اسرائيل ومعظم ذلك كان ينشر او يذاع .

ان تطوير منهج الهيمنة الفكرية والاستراتيجيات التي اتبعها الاعلام لتغطية ولتشويه ما حدث في لبنان ، بشكل بارع وخارق أعطى ثماره ،

والدليل على ذلك انه تمت احصاءات للراي العام الامريكي في نهاية عام ١٩٨٢ اي بعد الغزو الاسرائيلي للبنان وحتى بعد صبرا وشاتيلا ، ووجد ان صورة اسرائيل مازالت على ماهي عليه في اذهان الامريكيين . فتصورنا بأن الامور تغيرت ليس فقط وهما وانما وهما خطيرا . حتى وان سلمنا مع اصحاب نظرية « التغيير » **فهل يصبح الثعبان غير سام عندما يغير ثوبه ؟ !**

آن الاوان ان نتعرف على هوية اولئك الاسياد وادواتهم المستعملة في تمرير برنامج الهيمنة الفكرية . تعرفنا على اصلهم قد يدلنا على هدفهم من فعل ذلك ، وخاصة ما يفعلونه بنا .

*** محطات التلفزيون والاذاعة :**

في الولايات المتحدة ثلاث شركات تلفزيونية رئيسية CBS ABC و NBC ــ رئيس مجلس إدارة ABC منذ عام ١٩٥٣ هو « ليونار غولدن صن » . هذا الشخص ومساعداه « ليون هس » و « ايفرت ايدلك » يتحكمون وبشكل كامل بكل ما تنتجه وتخرجه تبثه الـ ABC

ــ رئيس مجلس ادارة CBS منذ عام ١٩٤٨ هو « وليم بيلي » ، يساعده رئيس محطة NBC « جيمس روزن فيلد » ونائب رئيسه « ديفيد فخس » .

ــ رئيس محطة NBC حتى عام ١٩٧٠ هو « ديفيد سارنوف » ، واستلم بعده ، حتى عام ١٩٧٥ ابنه « روبرت » . المجلس الاداري الحالي من المقربين جدا لديفيد ، منهم « جورج فخس » « يوليوس كبلمان » « روي بولاك » « أوبن فندربرغ » و « ارون سفلر » . نائب الرئيس الحالي لـ NBC هو « ارون سبخلستاين » . رئيس دائرة الاخبار هو « روفن فرانك » .

تتبع لهذه المحطات الثلاث ٨٥ بالمائة من المحطات التلفزيونية الفرعية في ولايات امريكا . ونفس النسبة تقريبا من محطات الراديو . هؤلاء الرجال بيدهم السلطة العليا ، ولهم القرار النهائي في برمجة ما يجب ان يسمعه ملايين الامريكيين يوميا عما يدور في بلدهم وفي العالم .

كل هؤلاء الرجال يهود ، ومشهود لهم بدعمهم لاسرائيل .

ـ بالاضافة الى هذه المحطات الثلاث ، توجد محطة حكومية شعبية عامة هي محطة F B S . قد يفضل المشاهد الاستماع لهذه المحطة لكثرة برامجها الثقافية وخلوها من الاعلانات التجارية التي تبثها المحطات السابقة ، ولاعتقاده بانها ستقدم له اخبارا موضوعية لانها عامة Public . وسرعان ما يفاجأ بالمثل السابق « اذا راس انا رابح واذا كعب انت تخسر ».ان هذه المحطة تملك الأسم فقط من عبارة Public وتعيش على منح من شركات ضخمة كشركة « فورد » و « جنرال الكترك » وبعض رؤوس الاموال الضخمة . وتعرض هذه المحطة باستمرار في طيات برامجها « الثقافية » افلاما وثائقية مثل « الهولوكوست » ــ ابادة اليهود ــ وتاريخ اليهود وحضاراتهم .

هذا ليس غريبا ، فرئيس المحطة « لورنس غروسمان » ورئيس محطات الراديو التابعة لها « فرانك ما نكتوش » والاثنان من اليهود وذوي الجذور الصهيونية .

ـ الصحف والمجلات :

التلفزيون الذي يلعب دور رب البيت في امريكا ، تقابله الصحيفة التي تلعب دور ربة البيت . يباع من مختلف الصحف الامريكية ٦٠مليون نسخة يوميا . وتصدر هذه الصحف عن ١٧٤٥ دار نشر . وقد يتصور الانسان للوهلة الاولى ان هذا التنوع والاختلاف سيضمن عدم احتكار جهة معينة لمصادر الاعلام الصحفية . ولكن سرعان ما يخيب ظنه ويكتشف أن دور النشر هذه مسيطر عليها من قبل اليهود بشكل مباشر والنصف الآخر بشكل غير مباشر . تكون السيطرة غير المباشرة على الشكل التالي .

من المعروف ان استمرارية وازدهار صحيفة او مؤسسة اعلامية ما تأتي من الذين يضعون اعلانات تجارية في هذه الصحف ويدفعون عليها اموالا طائلة للترويج لمنتجاتهم ، وليس من الـ (٢٥) او (٥٠) سنتا التي يدفعها قارىء الصحيفة . ومن المعروف ايضا ان اليهود في الولايات المتحدة يديرون جزءا كبيرا جدا من رأس المال الامريكي . وهنا نستطيع ان نورد المثل القائل « من يدفع للزمار يسمع اللحن الذي يريد » .

اذكر على سبيل المثال اربع شركات صحفية امريكية :

ــ نيوهاوس Newhouse هذه المؤسسة اخذت اسمها من المهاجر اليهودي الروسي « صموئيل نيوهاوس » . تصدر هذه المؤسسة (٤٩) صحيفة ، (٢١) منها تصدر يوم الاحد فقط . يوزع منها (٥) ملايين نسخة . اضف الى ذلك (٢٠) مجلة اشهرها غليمر Glamour هاوس House غاردن Garden وسلف Self . وكذلك مجلة باريد Parade الشهيرة الصادرة كل احد ، والتي يوزع منها (٢٢) مليون نسخة اسبوعيا . تمتلك هذه الشركة ايضا محطات تلفزيونية خاصة عددها لا يقل عن العشرين .

ــ نيويورك تايمز The Newyork Times : اضخم صحيفة في الولايات المتحدة وحتى في العالم . تصل تقريبا الى كل بيت ومؤسسة ودائرة في امريكا . وهي ايضا مرجع لمعلومات يقتبس منه في اغلب المحطات الاذاعية والتلفزيونية . مؤسس هذه الصحيفة « هنري ريموند وشريكه » اشتراها منهما اليهودي « ادولف اوخس » بسعر زهيد بعد ان قاربت على الافلاس . وعندما اشتراها هذا اليهودي ازدهرت لارتفاع الاعلانات التجارية فيها بشكل هائل . مالكو الصحيفة الحاليون هم عائلة « سولزبرغ » اليهودية وهم من اقارب اوخس . هذه العائلة تمتلك ايضا (١٣) صحيفة و (٨) مجلات ومحطات تلفزيونية خاصة Cable TV والاهم من كل ذلك ان شركة نيويورك تايمز تبث اخبارا لاكثر من (٥٠٠) مؤسسة صحافية واخبارية .

ـ واشنطن بوست The Washington Post : تأتي بعد نيويورك تايمز من حيث الانتشار هذه الصحيفة بحكم وجود مركزها في واشنطن العاصمة تلعب دورا كبيرا من خلال التقاطها للاخبار المسربة من قبل بعض العناصر في الادارة الامريكية ، وذلك بالتأثير على تفكير وقرارات صانعي السياسة الامريكية داخليا وخارجيا .

بعد افلاس الجريدة عام ١٩٣٣ ، اشتراها الراسمالي اليهودي « يوجين مير » بمبلغ زهيد . تشرف على الصحيفة الان « كاترين مير » ابنة يوجين ، وابنها الان هو المسؤول الاول عن الصحيفة وما فيها . تمتلك هذه الشركة ايضا مجلة « نيوز ويك » Newsweek ، بالاضافة الى صحف اخرى ومحطات تلفزيونية فرعية في ولايات ميتشغن وفلوريدا وكنكتكت .

ـ وول ستريت جورنال The Wall Street Journal : رئيس ومدير عام صحيفة الراسماليين (في كل أنحاء العالم) هذه هو « وارن فيلبيس » وهو ايضا يهودي الاصل .

ـ مجلة « تايم » الصادرة عن شركة التايم توزع اسبوعيا (٤) مليون نسخة . يتبع لهذه الشركة ايضا مجلات اخرى اشهرها لايف Life و فورتشن وسبورتس اليوستريتند Sport Illustrated ، بيبسل People ، منسي ودسكفر . وتمتلك ايضا محطات تلفزيونية فرعية تعمل في (٣٦) ولاية . وتصدر عن هذه الشركة أيضا كتب لا حصر لها ولا عد .

رئيس تحرير مجلة تايم Time والمنشورات الصادرة عن شركة « تايم » هو Henry Grunwald هنري غرون وولد . والرجل أيضا من (شعب الله المختار) .

ـ هناك ايضا دور نشر للكتب هولت ، رايسن هارت Rhinehart ، ونستن Winston الخ ، وهي ايضا في ايادي المجموعة المذكورة .

☆ ☆ ☆

التعطش للقوة والهيمنة :

تسلل الراسماليون اليهود الى كل زاوية من زوايا الاعلام عقـودا من الزمن قبل ان يدرك الدور الفعال للاعلام في الراي العام . وتجذرت قواعدهم في بدايات هذا القرن من خلال السيطرة على نشر الكلمة المكتوبة والراديو والسينما . وما ان قاربت الحرب العالمية الثانية على الانتهاء حتى اصبحت ادارة دفة الاعلام الامريكي بأيديهم تماما .

ومن خلال تنسيقهم وتوفيقهم بين مطامعهم الاقتصادية وطموحاتهم السياسية ، لم ينجزوا فقط ارباحا هائلة ، بـل استطاعوا استعمال سلطانهم الاعلامي كحلقة حديدية في انف الولايات المتحدة الامريكية لبناء قاعدة جبارة متغطرسة لا يجرؤ احد على معارضتها .

بامكانهم صنع نواب ، وشيوخ ، وحكام ولايات ، بامكانهم ايضـا صناعة رؤساء ـ وتحطيمهم ايضا ـ ، والشاهد على ذلك نيكسون . وما فضيحة « ووتر غيت » الا اخراجا « يهوديا » . لو اختار سادة الاعلام تجاهلها لقدروا . فقد استطاعوا اخفاء مداولات « جونسون » المادية المشبوهة . وتجاهلوا ايضا حيـاة « كندي » الجنسية التي تشبه جحر الارنب .

وهنا ياتي مـن يقول بأن اليهود لم يدعموا ريغـن في الانتخابات الامريكية الاخيرة ، حيث صوت ٨٠ ٪ منهم مع مونديل ، ومع ذلك نجح ريغن . تفسيري الخاص لذلك بأنه حتى لو خسر ريغن كل اصوات اليهود كانت اموال الراسماليين منهم واعلام الاسياد معه بطريقة غير مباشرة (هذه القضية تحتاج الى بحث خاص) .

اخيرا اذا كانت هذه الحال بالنسبة للشعب الامريكي الذي يرزخ تحت نير الابواق الاعلامية اليهودية الصهيونية . واذا كانت هذه ايضا حال صانعي القرار السياسي الامريكي وعلى رأسهم رئيس امريكـا ، فماذا يرجو العرب من سياسة امريكا هذه ؟ وماذا ؟ .

سيقول عدد من ابناء امتنا العربيـة وعلى رأسـهم بعض المثقفين العرب ـ وخاصة في الغرب ـ ان هذا التحليل الذي يصور بأن عدائية الاعلام الامريكي للعرب هي بسبب كون اليهود مسيطرين على هذا الاعلام، هو تحليل سطحي يخلط ليس فقط اطماع الامبريالية الامريكية وضرورة كون الاعلام الامريكي على ما هـو عليه بل يخلط ايضـا بين اليهـود والصهاينـة .

ردي على الشطر الاول من هذا الانتقاد المتوقع هو التالي :

انه لا توجد دولة في العالم مدركة ومهتمة بمصالحها في منطقة الشرق الاوسط العربية اكثر من الولايات المتحدة نظرا للموقع الاستراتيجي والخيرات لاقتصادية والطاقة البشرية التي يمتلكها الوطن العربي . فمن المنطقي ان توظف أمريكا كل طاقاتها بما فيهـا الاعلام للسيطرة علـى منطقتنا . ويكون استعمال الاعلام بما يخدم تلك الطموحات ، ويتـم ذلك بحسـن معاملة وتصوير اهل تلك المنطقة للدخول ليس فقط لبلادهم بل لقلوبهم وعقولهم ايضا .

ولكننا يجب ان نعرف ان هذا الاعلام لا يشهر عداء للعرب فقط وانما هو عدو للمواطن الامريكي بالذات : فهو عندما يمارس عملية الهيمنة الفكرية المشلة للدماغ والتي تجعل هذا المواطن يقف موقفا لا يقبله في الحالات الطبيعية وحالات وضوح رؤيته عما يدور فعلا (فهذا الانســان الامريكي بسيط وطيب وهاو للحرية ، فهو بعد ان هاجر مـن اوروبا بسبب التعصـف الديني الذي مارسته الكنيسة عليه يجد نفسه مرة اخرى ، ودون ان يشعر ، في شباك خفية تسيطر على دماغه وتهيمن على فكره وتموله الى متعاطف مع اسرائيل ومعاد للعرب) .

اسياد الاعلام من اليهود الذين لا تهمهم الا سلامة اسرائيل في تلك المنطقة ، مطمئنون بأن اسرائيل راس حربتهم المتقدم في المنطقة والقاعدة

العسكرية الجبارة القادرة على المحافظة على المصالح الامبريالية تحقق لهم مصالحهم وتحميها ليس بالحسنى وانما بالقوة . فهم يتصورون ان الاستمرارية في منهج الهيمنة الفكرية سيحرض الرأي العام الامريكي اكثر واكثر ، وذلك يحقق لهم ما يريدون في نهاية المطاف . ولكن في هذه الايام تختلف الامور قليلا حيث ان برنامج الهيمنة الفكرية يتضمن شيئا من استراتيجيات الحسنى وخاصة (للمعتدلين من العرب) . ومن الممكن ان هذا هو ما قصد بالتغيير الذي لاحظه بعض العرب في الاعلام الامريكي .

اما بالنسبة للشطر الثاني للانتقاد المتوقع وهو ان هناك « خلطا بين اليهود والصهاينة » ، فنحن لا نقع في كبوات التعميم التي تميز من سيتقدم بانتقاد مثل هذا . وبوضوح اكثر ان هناك فكرة شائعة لدى الكثيرين وهو ان هناك فريقا من الصهاينة منفصل انفصالا كاملا عن اليهود . وهنا يقعون في هفوة التعميم وذلك بنظرتهم للفريق الثاني (اليهود) على انه « كل متجانس » . **فكثير من اليهود اكثر صهينة من المعروفين علنا بانهم صهاينة وما هذه الفئة المسيطرة على الاعلام الامريكي الا جزء لا يتجزأ من الصهيونية العالمية ، التي تنوي السيطرة على العالم .**

اريد من القارىء أن يحلل ويتمعن معنى عبارة « شعب الله المختار » التي يعتنقها ويؤمن بها الصهاينة واليهود معا . **لا بد من استثناء بعض اليهود الذين ادركوا الحق والحقيقة .**

بعد تعرفنا على حقيقة الاعلام الامريكي يجب ان نبحث عن طريقة لمواجهته . ايجاد وسائل لمقاومة سموم الاعلام الامريكي تتطلب بحوثا عميقة وعلمية . لاذكر في هذا المقال خطوطا عريضة عامة يمكننا الارتكاز عليها في تخطيط مشروع للمواجهة .

ـ تمتين جبهتنا الاعلامية الداخلية ، من خلال التركيز على مخاطر الاعلام الامريكي وايضاحها للمستمع أو القارىء العربي ، فالاعلام الامريكي الذي صنع رأيا عاما امريكيا يمرر من خلاله كل مخططات الصهيونية والامبريالية وذلك بترويجه لتلك المخططات واخفائه لاهدافها الحقيقية، هذا الاعلام يمارس عملية مشابهة جدا في منطقتنا العربية وخاصة في هذه الفترة .

ـ وعلى صعيد امريكا يجب ان نعمل جاهدين على فضح مخطط الهيمنة الفكرية الذي يمارسه الاعلام الامريكي على المواطن الامريكي البريء . ويجب ان نوضح له من هم العرب فعلا وما هي مساهماتهم الفعالة في صنع الحضارة الانسانية وحبهم لشعوب الارض كافة ، وما هي حقوقهم المغتصبة ، وماذا يمارس عليهم من سيطرة وتسلط ، ومن هي اسرائيل فعلا وما هي اهداف وجودها الحقيقية اساسا ، ليعرف من هو الذئب ومن هو الضحية .

ويكون العمل على صعيد امريكا من خلال طلابنا العرب وبعثاتنا الدبلوماسية وجالياتنا العربية في امريكا . يجب اولا ان يتم تفاعل منسق بين هذه الجهات الثلاث ، ثم ينطلقون وبشكل منظم في حملتهم المناوئة للتسلط الاعلامي المفرض ، وهنا توضع امريكا على المحك الحقيقي ، ان اعترضوا حملتنا وحاولوا تشويهها او منعونا من الحرية الكلاميةالاعلامية فيثبتون بذلك زيف شعار حرية الاعلام والكلمة . وان استطعنا ان نقول رأينا (الحق) فلا غبار على هذا المبدأ .

العمل الاعلامي هذا على الساحة الامريكية يتطلب امكانيات هائلة تنظيمية ، بشرية ومادية . الامكانيات البشرية متوفرة جدا ونحن بحاجة للعمل على الجانب التنظيمي وكذلك تأمين الجانب المادي (الذي اعتقد انه متوفر ايضا) .

وفي الختام ردنا الاخير على من يدعونا ويدفعنا ترغيبا او ترهيبا للسفر في « قطار امريكا للسلام » هو التالي :

هذا القطار هو قطار استسلام وخراب ، هذا قطار الصهيونية ، هذا قطار نفقد فيه هويتنا وحضارتنا فلن نسافر به ، وليذهب الى الجحيم هو ومسافروه .

نحن نسافر فقط في قطار السلام الحقيقي الذاهب الى بلاد العدالة والانسانية ، ولن نسافر الا في قطار نحتفظ فيه بهويتنا وحضارتنا وكرامتنا . ورحلتنا ستكون رحلة العروبة الصامدة في قطار الحق .

٢١ / ١ / ١٩٨٥

مراجع البحث :

١ ـ « الراي العام » للصحفي « جاك سمث » ، مجلة الفان فارد ، ربيع ١٩٨٣ .

٢ ـ « صورة العرب في الاعلام الامريكي » للكاتب « جاك شاهين » ، مجلة « الاميركان ارب افيرز » شتاء ١٩٨٢ .